مجلة
كلية البنات الأزهرية بالعاشر
من رمضان

السياقات الدلالية لمشتقات (س ح ر)
في القرآن الكريم دراسة تحليلية

إعداد الدكتورة

رشـــا رزق عـــلي أبـــوزيـــد

مدرس أصول اللغة بكلية البنات الأزهرية

بالعاشر من رمضان

العدد التاسع ديسمبر ٢٠٢٤ م

الترقيم الدولي (٣٦٠٧-٢٦٣٦)

الترقيم الدولي الإلكتروني(٣٦١٥-٢٦٣٦)

رقم الإيداع بدار الكتب (٢٠٢٤/٢٤٣٢٩)

السياقات الدلالية لمشتقات (س ح ر) في القرآن الكريم دراسة تحليلية

ملخص البحث:

إن التحليل الدلالي للسياق القرآني يعد أداة أساسية لفهم المعاني العميقة والمتشعبة التي يحملها القرآن الكريم، فكل آية قرآنية تحمل في طياتها معاني عميقة تتجلى بوضوح عند دراسة سياقها، مما يعكس الإعجاز اللغوي القرآني وقدرته على احتواء المعاني المتعددة في عبارات موجزة.

ويسعى هذا البحث إلى دراسة وتحليل جميع السياقات التي وردت فيها مشتقات (س ح ر) في القرآن الكريم، بغية رصد دلالاتها المتعددة والكشف عن الدلالة المقصودة في كل سياق، ودور السياق في إبراز هذه الدلالة. واشتملت الدراسة على سبعة مباحث، اختص المبحث الأول منها بدراسة السياقات الدالة على وقت السحر، واختصت المباحث بدراسة سياقات وصف الكافرين للأنبياء بالسحر، والذي جاء إما وصفا عاما للأنبياء جميعا أو مختصا بعدد من الأنبياء، فتناولت السياقات الخاصة بكل نبي في مبحث على حده، مع الحرص على المقارنة بين السياقات المتشابهة بغية التأكيد على اختصاص كل سياق بجزء من الدلالة لا يتم إلا به .

وقد التزمت الدراسة المنهج الوصفي بأداتيه الإحصاء والتحليل، حيث تم إحصاء كل المواضع التي وردت فيها مشتقات (س ح ر) في القرآن الكريم، ومن ثم وصفها وتحليل سياقها الداخلي والخارجي، مع الاستئناس بأقوال المفسرين واللغويين في كل موضع.

الكلمات المفتاحية: السياقات، الدلالية، التحليل، القرآني، السحر، وصف، الأنبياء.

Semantic Contexts of Derivatives of (S Ḥ R) in the Glorious Qur'ân
An Analytical Study

Abstract

Semantic analysis of Qur'anic contexts is a fundamental tool for understanding the profound and intricate meanings conveyed by the Qur'an. Each verse holds deep meanings that become evident when its context is studied, showcasing the Qur'an's linguistic miracle and its ability to encapsulate multiple meanings in concise expressions.

This study aims to examine and analyze all contexts in which derivatives of (S Ḥ R) appear in the Qur'an, with the goal of identifying their various connotations, uncovering the intended meaning in each context, and highlighting the role of context in clarifying these meanings. The study comprises seven sections. The first focuses on contexts related to the time of *sahar* (pre-dawn). The remaining sections explore contexts where disbelievers described prophets as magicians. These accusations, either generalized to all prophets or directed at specific individuals,

are analyzed in dedicated sections for each prophet. A comparative approach is employed to emphasize how each context conveys a distinct aspect of meaning, ensuring that every context's unique contribution to the overall meaning isrecognized.

The study adopts a descriptive methodology using both statistical and analytical tools. All instances of derivatives of (S Ḥ R) in the Qur'an are cataloged, followed by a detailed description and analysis of their internal and external contexts. The research is further enriched by referencing the interpretations of Qur'anic exegetes and linguistic scholars for each occurrence.

Keywords: Contexts, Semantics, Analysis, Qur’an, Magic, Description, Prophets.

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، منزل الكتاب المبين، المعجز ببيانه في كل وقت وحين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، إمام المتقين، وسيد الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه الغرِّ الميامين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين. وبعد،

فإن القرآن الكريم قد حوى من بديع البيان والفصاحة العربية ما عجز عنه العرب أنفسهم، فصحاؤهم وبلغاؤهم وشعراؤهم وكبراؤهم، فلقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا، فهو كتاب الله المكنون المعجز ببيانه المنزل على عبده النبي الأمي الأمين محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

والسحر من القضايا التي شغلت بال البشرية جمعاء، قديما وحديثا؛ فهذا يلهث ليعالج، وهذا لا يدخر وسعا ليضر غريمه، وذاك يتقرب بالكفر إلى الشيطان، ويهجر سبيل الرحيم الرحمن. كما أنه من الموضوعات التي كثر فيها الخبط والخلط؛ وما ذلك إلا لغموضه وخفائه، فلا يظهر منه إلا أثر يسير يخلب ألباب ضعاف الإيمان ويدفعهم إلى الاعتقاد بوجود قدرات خارقة اختص بها بعضهم عن الآخرين.

وبسبب ذلك أصبح كثير من الناس حيارى؛ لا يدرون أهم مرضى أم مسحورين، وربما يصل الأمر بهم – من شدة الحيرة – إلى التيه، فلا يأتون رشدا، ولا يطيعون مرشدا ولا ناصحا، مما يكون له آثار سلبية متعددة على الشخص نفسه وعلى أهله وولده وماله.

ولما كان القرآن الكريم جامعا لكل جوانب السحر: تصريحا تارة، وتلميحا أخرى، بل وتكرارا لوقائع بعينها في أكثر من موضع، ولم أقف على أحد من اللغويين تناول مشتقاته في القرآن الكريم بالدرس والتحليل لسياقاتها الدلالية، عزمت – مستعينة بالله تعالى – على

أن أخوض غمار هذه الدراسة، المتشعبة المسالك، راجية أن أسد هذه الثغرة في المكتبة اللغوية القرآنية.

وعليه جاء البحث بعنوان: السياقات الدلالية لمشتقات (س ح ر) في القرآن الكريم دراسة تحليلية. وقد سلكت في هذا البحث المنهج الوصفي؛ وذلك أنني قمت بحصر كل السياقات الدلالية لمشتقات هذه المادة في القرآن الكريم، ثم أتبعت ذلك بتصنيفها من حيث دلالتها اللغوية في السياق فوجدتها إما دالة على وقت السَّحر وهو وقت معين يكون قُبيل الفجر، أو دالة على معنى السِّحر المعروف وهو كلُّ ما كان من الشيطان فيه معونة أو الْأُخَذُة التي تأخُذُ العين، أو دالة على معنى البشرية المأخوذ من دلالة المادة على عضو من أعضاء الجسم وهو الرئة، فمعنى البشرية مأخوذ من وجود هذا العضو. لكني لاحظت اختصاص بعض السياقات بالدلالة على وقت السحر، وارتبطت الدلالتان الأخيرتان بارتباطهما بقصص الأنبياء، فتداخلتا في بعض السياقات وانفردت الدلالة الثانية بأغلب السياقات، ولهذا قمت بتصنيف هذه السياقات بناء على دلالتها اللغوية، ومن ثم قمت بدراسة وتحليل كل السياقات تحليلا دلاليا قائما على [1]:

أولا: تحليل السياق اللغوي صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا.

ثانيا: بيان شخصية المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالكلام.

ثالثا: بيان نوع الوظيفة الكلامية مدح، هجاء، طلب.

رابعا: بيان الأثر الذي يتركه الكلام كالإقناع والتصديق وصفا كاملا إلا من خلال سياق أعلى أو أوسع. وهذه العناصر حصرها علماؤنا في قسمين، هما:

١- السياق اللغوي وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النص.

(٢) ينظر: التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه، د/كريم زكي حسام الدين: ٨٦.

٢- السياق الخارجي وهو المستفاد من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص [١].

ويعد الربط بين السياق اللغوي والسياق الخارجي للنص من الأمور المهمة في أثناء التحليل الدلالي للسياق. وبإمعان النظر في السياقات القرآنية تبين لي أنه لا بد من الجمع بين السياقات المتشابهة التي قد يُتوهم أنه لا فرق بينها، بغية المقارنة بين عناصر كل سياق وإيضاح الفروق الموجودة بينها؛ ومن ثم الكشف عن العناصر اللغوية التي تُثْبِت المناسبة بين النص والسياق الموجود فيه، فيثبت بذلك أن تشابه السياقات ليس مجرد تكرار، وإنما يكون لمعنى إضافي لا يتم إلا بوجود كل نص في موضعه.

وبناء على هذا، جاء البحث في مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث وخاتمة. أما المقدمة فعرضت فيها موضوع البحث، وأهميته، وأسباب اختياره، والمنهج المتبع فيه، ثم خطته. وأما التمهيد فقمت فيه بتحديد الدلالة اللغوية لمادة (س ح ر)، ثم الدلالة الصوتية لها، ومن ثم حاولت الربط بينهما، وعلاقتها بالدلالة الصوتية لها. وأما المبحث الأول فقمت فيه بعرض السياقات الدلالية لمشتقات (س ح ر) الدالة على وقت السَّحَر. وأما المبحث الثاني فعرضت فيه السياق الدال على وصف الكافرين للأنبياء إجمالا بالسحر. وفي المبحث الثالث تناولت السياقات الخاصة بوصف النبيين صالح وشعيب – عليهما السلام – بالسحر. وفي المبحث الرابع قمت بدراسة السياقات المتعددة التي اختصت بوصف النبي موسى عليه السلام بالسحر. والتي كان لها نصيب الأسد من مشتقات المادة في القرآن الكريم، وعرضت في المبحث الخامس السياق القرآني الذي تناول قضية السحر على عهد سليمان عليه السلام وعلاقة هاروت وماروت بذلك، وفي المبحث السادس تناولت السياقات الخاصة

(١) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د/ عبد الفتاح البركاوي: ٣٠.

بوصف نبي الله عيسى عليه السلام بالسحر، وفي المبحث السابع والأخير تناولت السياقات المختصة بوصف الكافرين لخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ بالسحر.

وأما الخاتمة فقمت فيها بعرض النتائج الإجمالية التي استخلصتها من خلال معايشتي لهذا الموضوع وذكرت بعض التوصيات.

وتوجد بعض الدراسات السابقة التي ترتبط بقضية (السِّحْر)، والتي تمحورت حول دراسة حقيقته، وحكمه، وتاريخه، وتأثيره، وكيفية علاجه، ومن هذه الدراسات:

(السحر، دراسة في ظلال القصص القرآني والسيرة النبوية) للأستاذ/ إبراهيم محمد الجمل. و(السحر بين الحقيقة والخيال)، للدكتور/ أحمد بن ناصر بن محمد آل حمد. و(السحر والسحرة من منظار القرآن والسنة) للدكتور/ إبراهيم كمال أدهم. و(السحر بين الماضي والحاضر)، للدكتور/ محمد بن إبراهيم الحمد. و(السحر والسحرة على ضوء الكتاب والسنة) لأبي خلاد ناصر بن سعيد بن سيف السيف.

وقد ألمت بعض الدراسات بجوانب تكميلية من موضوع الدراسة، دون إصابة جوهره أو حقيقته، وهي:

- (حديث القرآن الكريم عن السحر دراسة موضوعية)، للأستاذ الدكتور/ رزق محمد السواحلي، تناول فيه تعريف السحر، وحقيقته، وحكمه، والفرق بينه وبين المعجزة، وجاء أحد المباحث بعنوان: وصف الكافرين للأنبياء بالسحر [1]، ذكر فيه تفسيرا مبسطًا لبعض الآيات التي وصف فيها بعض الأنبياء بالسحر، مع التركيز على بعض المواضع التي تتناسب مع موضوع البحث.

(١) ينظر: حديث القرآن الكريم عن السحر دراسة موضوعية: (٢٥٠٩ – ٢٥١٣).

– (السحر حقيقته وحكمه دراسة تحليلية في ضوء الآيتين (١٠٢ – ١٠٣) من سورة البقرة)، للدكتور/ بدر إبراهيم رجاء الذيابي. وهي دراسة تفسيرية تحليلية للآيتين، فيها حديث مفصل عن أسباب نزول الآيتين، ومناسبتهما لما قبلهما.

وقام فيها الدكتور [١] بتوضيح معاني الألفاظ الواردة في الآيتين، وذكر أقوال المفسرين في المختلف فيه منها مع ذكر الدلالة السياقية لبعضها، وفي أثناء ذلك عرَّف السحر شرعًا، وبيَّن حكمه، كما بيَّن اختلاف المفسرين في هاروت وماروت، وفي المراد ببابل، بهدف تفسير الآية عن طريق تحليلها إلى أجزاء ثم توضيح دلالة هذه الأجزاء والأحكام الشرعية المستنبطة منها، فالتحليل اللغوي للآية يمثل جانبا من جوانب التفسير التحليلي لها، ويتم بطريقة شمولية.

وفي بحثي هذا قمت بإجراء تحليل سياقي للآية (١٠٢) من سورة البقرة؛ لأنها تمثل واحدا من السياقات التي ورد فيها أحد مشتقات (س ح ر)، إلا أنني قمت بتحليل عناصر السياق الداخلي والخارجي وتحديد دلالاتها، وما تلقيه على السياق من ظلال، بغية تحديد دلالة (السحر) بدقة، وبيان العلاقة بينه وبين السياق ككل، وكشف تأثيرات العناصر النحوية والصرفية والاستعمالات المجازية على المعنى. ومن ثمَّ فالتحليل السياقي يغوص في عمق السياق ليستخرج ما فيه من دلالات تؤكد المعنى العام وتوجهه، وهذا ما اجتهدت في سبيل الوصول إليه في هذا البحث.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يغفر لي ما فيه من زلل، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله أولا وآخرا.

---

(١) ينظر: ص (٤١٥ – ٤٣٦) من البحث المذكور.

المدخل

أولا: الدلالة المعجمية لمادة (س ح ر):

أوردت المعاجم اللغوية عدة دلالات لمادة (س ح ر)، وذكر ابن فارس أنها جميعا تدور حول ثلاثة معان؛ حيث يقول:" السِّينُ وَالْحَاءُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ مُتَبَايِنَةٌ: أَحَدُهَا عُضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ، وَالْآخَرُ خَدْعٌ وَشِبْهُهُ، وَالثَّالِثُ وَقْتٌ مِنَ الْأَوْقَاتِ"(١)، فالعضو هو" السَّحْر والسُّحْر: الرئة في البطن بما اشتَمَلتْ، وما تَعَلَّق بالحُلقوم، وإذا نَزَتْ بالرجل البِطْنة يقال: انتفخ سَحْرُه إذا عَدا طَوْرَه وجاوَزَ قَدْرَه، وأكثرُ ما يقال للجبان إذا جَبُنَ عن أمرٍ. والسَّحْرُ: أعلى الصَدر"(٢)، "وَفِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ وِزَانُ فَلْسٍ وَسَبَبٍ وَقُفْلٍ وَكُلُّ ذِي سَحْرٍ مُفْتَقِرٌ إلَى الطَّعَامِ"(٣)، ومنه حديث عائشة: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَتَعَذَّرُ فِي مَرَضِهِ: (أَيْنَ أَنَا الْيَوْمَ، أَيْنَ أَنَا غَدًا). اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي، قَبَضَهُ اللَّهُ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَدُفِنَ فِي بَيْتِي» (٤).

وأما الثاني، فهو المراد عند إطلاق كلمة (السِّحْر)، وهو "كلُّ ما كان من الشيطان فيه مَعُونة. والسِّحْر: الأُخْذَة التي تأخُذُ العينَ. والسِّحْر: البَيان في فطنة. والسَحْرُ: فعل السِحْرِ"(٥)، فهو بهذه الدلالة يطلق على معنى مستحسن وآخر مستقبح، فالمستحسن هو البيان والفطنة، ومنه ما جاء عن «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما:

(١) مقاييس اللغة (س ح ر): ٣/ ١٣٨.
(٢) العين (س ح ر): ٣/ ١٣٦.
(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي (س ح ر): ١/ ٢٦٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، (١/ ٤٦٨).
(٥) العين (س ح ر): ٣/ ١٣٥.

أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ: إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ)» [١]، وجاء الحديث مفصلا في رواية أخرى، وذلك أن قيس بن عاصم المِنقري والزِّبرِقان بن بدر وعمرو بن الأعصم قدموا على النبي ﷺ، فسأل النبي عمرًا عن الزبرقان فأثنى عليه خيرا، فلم يرض الزبرقان بذلك، وقال: والله يا رسول الله إنه ليعلم أني أفضل مما قال، ولكنه حسد مكاني منك، فأثنى عليه عمرو شرًا، ثم قال:" يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ صَدَقْتُ فِيهِمَا جَمِيعًا، أَرْضَانِي فَقُلْتُ بِأَحْسَنَ مَا أَعْلَمُ فِيهِ، وَأَسْخَطَنِي فَقُلْتُ بِأَسْوَأِ مَا أَلَمَّ فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»"[٢]، وهذا مما يدل على أن التأثير على الناس إنما يكون ببراعة الشخص ورغبته وتركيزه على بعض الأمور التي قد تمر على غيره دون أن يتنبه إليها؛ نقل الأزهري عن أبي عبيد قوله:" كأنّ الْمَعْنى – وَالله أعلم – أَنه يَبْلُغُ من بَيَانِه أَنَّه يَمْدَحُ الإنسانَ فيَصْدُقُ فِيهِ حَتَّى يَصْرِفَ الْقُلُوب إِلَى قَوْله، ثمَّ يَذُمُّهُ فيَصْدُقُ فِيهِ حَتَّى يَصْرِفَ القُلُوبَ إِلَى قولِه الآخر، فكأنّه قد سَحَر السامعين بذلك"[٣]، بمعنى أنه يستغل قدراته في جذب انتباه السامعين لشيء معين، ويصرف انتباههم عما دون ذلك.

وأما الثالث، فهو وقت من الأوقات، وهو آخر الليل [٤]، وهو وقت السَّحر، يقول الراغب:" والسَّحَرُ والسَّحَرَةُ: اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار، وجعل اسما لذلك الوقت، ويقال: لقيته بأعلى السّحرين، والْمُسْحِرُ: الخارج سحرا، والسَّحُورُ: اسم للطعام المأكول سحرا، والتَّسَحُّرُ: أكله"[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب إن من البيان لسحرا، (٥/ ٢١٧٦)، ح رقم: ٥٤٣٤.

(٢) أخرجه ابن شبه في تاريخ المدينة، باب الوفود، (٢/ ٥٢٤).

(٣) تهذيب اللغة (س ح ر): ٤/ ١٧٠.

(٤) العين (س ح ر): ٣/ ١٣٥.

(٥) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٤٠١.

وبإمعان النظر في هذه الدلالات الثلاث وما أورده اللغويون من استعمالاتها؛ يظهر أن بينها ملمحا دلاليا مشتركا هو: اختلاط شيئين أولهما خفي مستور والآخر ظاهر واضح، فالسَّحَر، يكون عند اختلاط ظلام آخر الليل ببداية ضوء النهار، والسِّحْر يكون باختلاط فعل السِّحر – الذي يقوم به السَّاحر بشكل خفِيٍّ – بالأثر الظاهر الذي يشاهده المسحورون، والسُّحْرُ، هو منطقة أعلى الصدر التي تشمل الرئة والحلقوم، وهذه المنطقة تكون في نهاية الجزء الخفي المستور من البدن وبداية منطقة الحلق واللسان التي تكون ظاهرة بيِّنَة، فكلها تتفق في هذا الملمح، وتنفرد كل واحدة منها بملامح خاصة تعطيها دلالة خاصة بها.

الدلالة الصوتية لمادة (س ح ر) وعلاقتها بدلالتها المعجمية:

إن للصوت في لغتنا العربية قيمة دلالية بارزة، وقد لاحظ علماؤنا القدامى مناسبة أصوات حروف العربية لمعانيها، كما انتبهوا للقيمة التعبيرية الموحية في صوت الحرف العربي؛ إذ لم يعنهم من صوت الحرف أنه ذو خصائص معينة فقط، وإنما عناهم أيضا أنه معبر عن غرض ما، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوالّ المعبرة بذواتها. وانتبهوا أيضا إلى تلك العلاقة الوثيقة بين حركات الجهاز النطقي عند تكوين الصوت وبين قيمته التعبيرية.

وتتكون مادة (س ح ر) من ثلاثة أصوات هي السين والحاء والراء، وعند استعراض الجوانب الصوتية لهذه الأصوات الثلاثة يظهر جليا عمق العلاقة بين هذه الأصوات وبين دلالتها اللغوية على المعنى.

الصوت	صفاته
السين	مهموس، رخو، منفتح، مستفل، مرقق، صفيري

الراء	مجهور، متوسط، منفتح، مستفل، مكرر، مرقق أو مفخم حسب موقعه
الحاء	مهموس، رخو، منفتح، مستفل، مرقق

أما السين، فهي من الأصوات اللثوية، ويتم نطقها باندفاع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فلا يهتز الوتران الصوتيان، ثم يمر الهواء بالفم، فيضيق ما بين مقدم اللسان واللثة العليا، حيث تقترب أسلة اللسان أشد القرب من أطراف الثنايا، فيتكون ممر عريض وضيق، فيخرج الهواء محتكا بالممر ومصطدما بالأسنان العليا من الداخل فيحدث الصفير (١)، ولذا فالسين صوت لثوي احتكاكي صفيري مهموس (٢).

وأما الحاء، فهي من الأصوات الحلقية، ويتم نطقها بخروج الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فلا يهتز الوتران الصوتيان، ثم يضيق الحلق فيحتك الهواء بجدرانه، ثم تسُدُّ اللهاة طريق الأنف ليخرج الهواء من الفم(٣)، ولذا فالحاء صوت حلقي احتكاكي مهموس(٤).

وأما الراء، فهي صوت لثوي مكرر مجهور (٥)، يتم نطقه باندفاع الهواء الخارج من الرئتين، مارا بالحنجرة فيهتز الوتران الصوتيان، ويمر الهواء بالفم فإذا وصل اللسان، امتد طرفه مرتعدًا حتى يلمس لثة الثنايا لمستين أو أكثر، وينحبس الهواء عند ملامسة طرف اللسان اللثة،

(١) ينظر:المختصر في أصوات اللغة العربية، د/ محمد حسن جبل: ٥٤، في الدرس الصوتي، د/ عبد المنعم عبدالله:١٤٧.

(٢) ينظر: علم اللغة العام الأصوات، د/كمال بشر:١٢٠، علم الصوتيات، د/ عبد العزيز علام، د/ عبد الله ربيع: ٢٧٢.

(٣) ينظر: علم الصوتيات: ٢٦٨، في الدرس الصوتي:١٣٣.

(٤) ينظر: علم اللغة العام الأصوات:١٢١، علم الصوتيات: ٢٧٣.

(٥) ينظر: علم اللغة العام الأصوات:١٢٩، علم الصوتيات: ٢٧٣..

ولكنه لا يلبث أن ينطلق بعد افتراقه عنها، ثم ينحبس ثانية عند ملامستها وينطلق بعد افتراقها عنه وهكذا [١].

فالسين برخاوتها وضعفها واحتكاكها تحاكي هذا الخفاء الممتد الذي يكتنف ظلام الليل وامتداده، وتحاكي أيضا ذلك الجزء المظلم في ذهن كل من يضمر الشر ويفكر فيه، وكذلك المنطقة غير الظاهرة من الصدر. ثم تأتي الحاء بعمق صوتها الذي نحسه كأنه خارج من عمق الرئة، وهذا العمق هو ما يدفع الشارق إلى تكرارها في تنحنحه. هذا الصوت بعمقه يحاكي الجزء الأكثر خفاء وظلمة في دلالة (سَحِر)، وباحتكاكه وهمسه يحاكي هذا الاختلاط الحادث بين الخفاء والوضوح، ثم برخاوته وجريانه يحاكي بداية الظهور سواء ظهور ضوء النهار أو ظهور خُدَع الساحر ووضوح تأثيرها أو بداية الحلق واللسان.

ثم يأتي صوت الراء بهذه الطرقات السريعة المكررة، فيعلن طرقة بعد طرقة عن الوضوح التام وانتهاء الظلمة وانكشاف الحيلة ووضوح الأثر.

وبالنظر إلى جانب الوضوح السمعي لهذه الأصوات [٢]، يلاحظ أن صوتي السين والحاء من أقل الأصوات وضوحا في السمع لكونها مهموسة رخوة، وأن صوت الراء من أكثر الأصوات وضوحا في السمع لكونه مجهورا متوسطا، وعدم الوضوح السمعي في أكثر من (٦٦٪) من المادة يصور بشكل بديع اتساع غطاء الظلام، سواء المادي في ظلمة الليل وداخل صدر الإنسان، أو المعنوي في نفس الساحر الخبيثة التي تبيت المكائد والشرور للناس. وأما الوضوح السمعي للراء فيكشف هذه الظلمة، ويبرز الخديعة فيراها الناس بأم أعينهم فيظنون أنها تمثل الحقيقة الواقعة وما هي إلا تخييل الرائي.

السياقات الدلالية لمشتقات (س ح ر) في القرآن الكريم:

(١) ينظر: المختصر في أصوات اللغة العربية: ١٠٩، في الدرس الصوتي:١٥١.

(٢) ينظر: دراسات في علم الأصوات اللغوية، د/ أحمد طه سلطان: ١٤٤.

وردت مادة (س ح ر) في سبع وعشرين سورة من سور القرآن، هي (البقرة، آل عمران، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس، هود، الحجر، الإسراء، طه، الأنبياء، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، سبأ، الصافات، ص، غافر، الزخرف، الأحقاف، الذاريات، الطور، القمر، الصف، المدثر)، وهذه السور مكية كلها، إلا (البقرة، آل عمران، الصف). وبإمعان النظر في السياقات القرآنية لهذه المادة، يلاحظ أنها وردت في ثلاثة وستين موضعا، اختصت في ثلاثة مواضع منها بالدلالة على وقت السَّحَر وهو الوقت الذي يكون قبيل الفجر، بينما دلت باقي المواضع على المعنى الثاني المذكور في نص ابن فارس في المقاييس؛ وهو كلُّ ما كان من الشيطان فيه معونة أو الأُخْذَة التي تأخُذُ العين، واختلف المفسرون – في بعض المواضع– بين دلالتها على هذا المعنى وبين دلالتها على البشرية المأخوذة من دلالة المادة على عضو معين هو الرئة. وأتت هذه المادة مرتبطة بقصص الأنبياء إجمالا أو تفصيلا، وسيتم تحليل سياقاتها بناء على هذا.

المبحث الأول

السياقات الدالة على وقت السحر

استعمل اثنان من مشتقات (س ح ر) للدلالة على وقت السَّحر، في ثلاثة سياقات:

الأول: في قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾[آل عمران: ١٦-١٧]، **والثاني**: في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ١٥-٢٠]،

والثالث: في قوله تعالى:﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر:٣٣-٣٥]

السَّحَرُ: آخر الليل، وهو الوقت الذي يكون قبيل طلوع الفجر، حيث تختلط ظلمة الليل بضوء النهار، في الثلث الأخير من الليل، ومنه السَّحور: وهو الطعام والشراب الذي يُتَسَحَّرُ به، وتَسَحَّر الرجل ذلك الطعام: أي أكله في وقت السَّحر [١].

وبإمعان النظر في هذه السياقات، يلاحظ أنه ورد فيها مشتقان من (س ح ر)، هما (الأَسْحَار، سَحَر)، فالأسحار (جمع سَحَر) ووردت مرتين في سياقين متشابهين. وهي على صيغة جمع التكسير (أَفْعَال)، من أوزان القلة عند كثير من النحاة، الذين صنفوا جموع التكسير إلى جموع قلة وجموع كثرة، وأرادوا بالقلة: ما كان من الثلاثة إلى العشرة، وبالكثرة: ما زاد على العشرة [٢]. ولعلهم يقصدون أن ذلك يكون في الغالب من كلام العرب. وربما كان هذا ما دفع بعض المحدثين لإنكار ذلك التصنيف[٣]، وهو أيضا ما دفع باحثا آخر[٤] للرد عليهم، فعرض أدلتهم وفنَّدها واحدا واحدا، وكان تركيزه الأكبر على أن السياق هو الذي يحكم الاستعمال، فبحسب المعنى الذي يريده مستعمل اللغة فإنه يسوق له من الألفاظ ما يعبر عن ذلك المعنى أسمى تعبير – وإن خالف ذلك العرف اللغوي –. "فالكلمة

(١) ينظر:العين (س ح ر): (٣/١٣٥، ١٣٦)،وتهذيب اللغة (س ح ر): (٤/ ١٧١، ١٧٢)، المفردات: ٤٠١.

(٢) ينظر: الكتاب لسيبويه ٣/ ٣٩٥ وما بعدها، والمفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ص ٢٣٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/٢٢٤ وما بعدها.

(٣) من أصحاب هذا الرأي د/ إبراهيم أنيس في كتابه: من أسرار اللغة ص ١٣٨ وما بعدها، ود/ محمد أبو الفتوح شريف في بحث له بعنوان: من قضايا جمع التكسير ص ٨٦، ٨٧.

(٤) قام بذلك د/ محمد الأمين الخضري في كتابه الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم: ١٢.

خارج السياق لها أحكامها وعندما توضع في سياق محدد ربما حتَّم السياق تغيير مسارها، ومن ثم ينبغي أن يكون السياق حاكما لكل شيء"[١]، وهذا هو الشأن في القرآن الكريم؛ ففي سياق الموضع الأول، يُلاحظ أن الله تعالى يعدد فيه صفات (الذين اتقوا)، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[آل عمران:١٥-١٧]، فعلى سبيل التشويق ذكر الله سبحانه وتعالى ما أعد للمتقين من جنات وأزواج ورضوان من الله، ثم بيَّن أوصاف وأعمال هؤلاء المتقين، فهم الصابرون والصادقون والقانتون والمنفقون، وختم ذلك بأنهم المستغفرون، وخصص الاستغفار بوقت الأسحار – وإن كان الاستغفار مندوبا في كل وقت – ؛ لبيان فضل ذلك الوقت، فهذا الذي ترك لذة النوم في ذلك الوقت وأقبل على العبودية وقضى جزءا من الليل في الصلاة والوقوف بين يدي الله ثم جلس يختم ليله بالاستغفار من ذنوبه وبالاعتراف بأنه مهما فعل من الطاعات فإنه ما زال يشعر بتقصيره و يشكر الله على أن أقدره على قيام الليل ثم الاستغفار والذكر[٢].

و في سياق الموضع الثاني الذي ورد فيه لفظ (أسحار)، يُلاحظ أن المعني المراد منه لا يبتعد عن سابقه؛ فهو يبدأ بإثارة نفوس المؤمنين وإعدادهم لتقبل ما هو آت؛ وذلك بقوله

(١) التحليل الدلالي للبنية الصرفية في سورة الفتح د/ حمدي صلاح الدين الهدهد: ٤٦٥.

(٢)أفاض المفسرون في شرح دلالة الاستغفار هنا، وفي علَّة تخصيصه بالأسحار. ينظر: جامع البيان: ٦/٢٦٥ – ٢٦٧، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/ ٣٨٥، مفاتيح الغيب: ٧/ ١٦٧، تفسير القرطبي: ٤/ ٣٨.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦﴾ ، فهنا يبدأ العقل في التفكير والتساؤل عن الأسباب التي أوصلتهم لتلك المنزلة، وإذ بالسبب يأتي مباشرة في وقت النفوس فيه مهيأة تماما لتقبل السبب والعمل بمقتضاه ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾. وبالتأمل وإمعان الفكر في دلالة صيغة (أسحار) الذي أتى على (أَفْعَال) الذي يراد به جمع القلة في الأغلب من كلام العرب، يتبين أنها قد تُأوّل بالدلالة على الكثرة من جهة أو على القلة من جهة أخرى، فلو كان هؤلاء المؤمنون مداومين على قيام الليل للصلاة ثم المكوث في الثلث الأخير منه للتضرع والاستغفار ، كانت دلالة الصيغة على الكثرة أولى، فهم يكثرون من ذلك.

أما إذا كانت أوقات نشاطهم للعبادة متقلبة بين النشاط والنوم، أو كانوا مُقلين من قيام الليل والاستغفار، كانت دلالة الصيغة على القلة أنسب لحالهم، فحتى لو كان قيامهم بضع ليال، فإن وعد الله بالدخول في زمرة المتقين يشملهم، ولا شك أن في هذا بعث للأمل في نفوسهم وتقوية لعزيمتهم على الاستمرار والاستزادة من الطاعات [1].

وأما عن الدلالة التركيبية للفظ (الأسحار) في سياق الآيتين، فلفظ الأسحار أتي متأخرا عن المستغفرين في آية آل عمران، في حين أنه تقدم في آية الذاريات ولا شك أن لهذا دور

---

(١) ينظر: الإشارات الإلاهية إلى المباحث الأصولية : ١٢٢، حيث قال تعقيبا على آية آل عمران :" «{الصّابِرِينَ وَالصّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ} عام، ثم يحتمل أنه مطرد بحيث لا يدخل تحت هذا المدح إلا من استغفر في جميع أسحار عمره، ويحتمل أنه عام أريد به الخاص، وهو غالب أسحار العمر، مع أن الأسحار جمع قلة، وأكثره عشرة، فمن استغفر في عشرة أسحار من عمره، دخل تحت هذا الوعد، لكن هذا يقدح في كون الأسحار لفظا عاما فيما أرى» ، وأقول: أن هذا المعنى لا يقدح في عموم لفظ الأسحار، وذلك أن المولى تبارك وتعالى يرغب المؤمنين في قيام الليل، فإذا رغبوا ثم قاموا واستغفروا فإن نفوسهم وقلوبهم بذلك تكون قد ذاقت لذة هذا العمل فتتعلق به وتكون أكثر حرصا على المداومة عليه وبالتالي يصيرون من المكثرين فتتحقق عمومية اللفظ، والله تعالى أعلم.

في الدلالة، ففي الآية الأولى عدد الله تعالى صفات المتقين بأنهم(ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ)،فكان الأنسب للسياق أن تأتي (وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ)، ثم بعدها يأتي التخصيص (بِٱلْأَسْحَارِ)، فبعد تعديد الصفات الظاهرة التي يقوم بها العبد أمام الناس، تختم الآية بأرفع هذه الصفات وهو الاستغفار في جوف الليل حيث يخلو العبد بربه، وهذا لا يقدر عليه إلا من صَحَّ إيمانه، وعلل الرازي لتقديم ذكر المنفقين على ذكر المستغفرين، فقال:" لأن هذه الآية في شرح عُرُوج العبد من الأدنى إلى الأشرف، فلا جَرَمَ وقع الخَتم بذكر المستغفرين بالأسحار"(١).

وفي آية الذاريات تقدم لفظ الأسحار على الاستغفار وأتى الاستغفار بصيغة الفعل المضارع مسبوقا بالضمير (هم)، وهذا بالطبع يتناسب مع نسق الآية السابقة ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾، فأصل الكلام (كانوا يهجعون قليلا من الليل)، فهذا التقديم والتأخير، يحدث استثارة لفكر السامع وتشوقا لمعرفة ما كانوا يفعلون في هذا القليل، يقول البغوي: "والهجوع النوم بالليل دون النهار، "وما" صلة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلا من الليل، أي يصلون أكثر الليل "(٢)، ثم يزيد التشويق بتقديم لفظ (وَبِٱلْأَسْحَارِ) فبسبب تقديمه قد يظن ظانٌّ أنهم إذا أتى السحر ينامون، لكن تأتي الجملة الإسمية (هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فتفيد انحصار المستغفرين، وذلك بتقديم الضمير(هم)، فكأن غيرهم ليس بمستغفر،كما يقال: فلان هو العالم لكماله في العلم كأنَّه تفرد به (٣)، وأضاف ابن عاشور:"وتقديم بالأسحار على يستغفرون للاهتمام به كما علمتَ، وصيغ استغفارهم

(١)مفاتيح الغيب: ٧/ ١٦٧.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن: ٧/ ٣٧٢.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٦٩، وينظر: تفسير القرآن العظيم للسخاوي: ٢/ ٣٨٣.

بأسلوب إظهار اسم المسند إليه دون ضميره لقصد إظهار الاعتناء بهم وليقع الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي فيفيدُ تقوِّي الخبر لأنه من النُّدرة بحيث يقتضي التقوية لأن الاستغفار في السَّحر يشق على من يقوم الليل لأن ذلك وقت إعيائه"[١].

وأما حرف الباء في أول (بالأسحار)، فتعددت فيه أقوال العلماء، فأكثرهم على أنه بمعنى (في) [٢]، وذكر أحدهم أنه بمعنى (عند) [٣]، ويبدو أن دلالتهما متقاربة فهما تدلان على الظرفية [٤]. وللرازي في معنى حرف الباء هنا رأي بديع حسن، فهو يرى أن الباء هنا لا تفيد الظرفية وإنما تفيد الإلصاق، فهم في عبادة دائمة، ومستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب [٥]، ولا شك أن هذه الدلالة تصدق في حق من يداوم على الاستغفار في الأسحار، دون غيرهم، وفي ظني أنه لا مانع من أن تفيد الباء كلا المعنيين بحسب حال المؤمن من المداومة على قيام الليل والاستغفار بعده، أو فعل ذلك في ليال دون أخرى، وبهذا يدخل الجميع في وعد الله للمتقين بالنعيم المقيم، والله أعلم.

وبالنظر في السياق الثالث الذي ورد فيه اللفظ دالا على ذلك الوقت من الليل، وهو قوله تعالى حكاية عن قوم لوط عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾، فقد وردت فيه مادة (س ح ر) على بناء المصدر الصريح المنكَّر (سَحَر) لتدل على المعنى دلالة عامة، فالمصدر اسم، والاسم يدل على الحدث مجردا من الزمن، وإن كان اسما لوقت محدد فإنه يدل على هذا الوقت دلالة

(١)التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦/ ٣٥٠، ٣٥١.

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ٥/ ٩١، البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/ ٢٥٦.

(٣) ينظر: حروف المعاني والصفات للزجاجي ص ٨٧.

(٤) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش: ٣/ ١٢٨، ٤/ ٤٧١، مغني اللبيب لابن هشام: ٢٢٣، وشرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري: ١/ ٦٤٩.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٦٨.

عامة، فلفظ (سَحَر) معدول عن الألف واللام ، ولأنه نكرة يكون في كل يوم ولا يُخَصُّ به يوم دون يوم انصرف، فيكون قوله: نجيناهم بسحر، يعني: سحرا من الأسحار(١)، وربما يكون في هذا إشارة إلى فضل ذلك الوقت من الليل؛ حيث حدثت لآل لوط فيه النجاة من العذاب.

ويلاحظ في سياق الآية، أنه كان يمكن الاكتفاء بالاستثناء (إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ) للدلالة على نجاتهم من العذاب، ولكن جاء قوله تعالى (نَجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ) لبيان وقت أو كيفية إنجائهم، وعلل لذلك الرازي بقوله:" لأن آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما في عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مِدْفَعا كما في قوم نوح، فقال: نَجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٍ أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل"(٢).

والباء في قوله تعالى (**بِسَحَرٖ**) للظرفية بمعنى (في)، فآل لوط قد استغرق خروجهم من القرية ونجاتهم من العذاب زمنا في وقت السحر، "ويجوز كون الباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ملتبسين بِسَحَرٍ داخلين فيه "(٣).

وبالمقارنة بين الاستعمال القرآني للفظ في هذا الموضع وفي الموضعين السابقين، يظهر جليا أن لفظ المصدر المنكَّر أنسب لهذا السياق فخروج آل لوط من القرية ونجاتهم حدث مرة واحدة، فكان اللفظ بهذه الصيغة كافيا للدلالة المطلوبة للسياق ككل، على عكس حاجة السياقين الآخرين لدلالة اللفظ على الكثرة؛ ولهذا أتى معرفا على بناء جمع التكسير.

---

(١) ينظر: المقتضب للمبرد:٣/ ٣٧٨، ٤/ ٣٥٦، معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٩٠.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٣١٤. وأضاف ابن عاشور:" وذكر بسحر، أي وقت السحر للإشارة إلى إنجائهم قُبَيْل حلول العذاب بقومهم لقوله بعده: ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر" التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٠٤.

(٣) جاء ذلك في تفسير الألوسي نقلا عن الراغب: ١٤/ ٩٠، ولم أجده في المفردات.

المبحث الثاني

سياق وصف الكافرين للأنبياء جميعا بالسحر

يتبادر إلى الذهن مباشرة عند إطلاق هذا اللفظ ما يقوم به بعض الناس في كل زمان ومكان من الاعتقاد في أن شخصا ما لديه من القدرات والإمكانات ما يجعله قادرا على فعل كثير من الأشياء التي لا يقدر على فعلها البشر العاديون، فيلجؤون إليه رغبة في إيقاع النفع أو الضرر بالنفس أو بالغير.

وأصل السحرِ صرف الشيء عن طبيعته إلى غيره، يقول أبو عبيد تعقيبا على قول النبي ﷺ (إن من البيان لسحرا):" كأن المعنى والله أعلم أنه يبلغ من بيانه أنَّه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله، ثم يذُمُّه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه قد سحر السامعين بذلك"(١).

وأما في الاصطلاح، فقد اختلفت تعريفات العلماء له بحسب اختلاف مذاهبهم فيه بين الحقيقة والتخييل، و بحسب اختلاف أصحابه في طرقه، يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي:" اعلم أن السِّحر في الاصطلاح لا يمكن حدُّه بحدٍّ جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعا لها مانعا لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدِّه اختلافا متباينا "(٢)، ولعل من أشمل التعاريف أن السحر: "هو المخادعة، أو التأثير في عالم العناصر، بمقتضى القدرة المحدودة، بمعين من

(١) تهذيب اللغة (س ح ر): ٤/ ١٧٠.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٤/ ٥٥٥.

الجن، أو بأدوية، أثر استعدادات لدى الساحر"[١]، فقد شمل ما يكون من السحر حقيقة أو تخييلا ، وتطرق أيضا إلى طرقه من الاستعانة بالشياطين أو غيرها من الطرق.

ولأهمية قضية السحر وتأثيرها على المجتمع والناس؛ تناولها القرآن في عدد من السياقات، سواء على سبيل العموم في شأن الأنبياء جميعا أو بتخصيصها ببعض الأنبياء وهم (صالح، وشعيب، وموسى، وسليمان، وعيسى، ومحمد) – عليهم الصلاة والسلام –.

وصف الأنبياء جميعا بالسحر:

ورد هذا في موضع واحد في القرآن الكريم، في سورة الذاريات، يقول الله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمُۢ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. وردت هذه الآيات في سياق تعزية النبي محمد ﷺ والتسرية عنه بسبب ما يلقاه من عنت ومشقة في دعوة أهل مكة للإسلام، ووصفهم إياه بأنه ساحر، فأخبره الله تعالى بأن هذا دأب المعاندين في كل زمان ومكان، فهم حين يحارون ويعدمون الحيلة أمام الآيات البينات على صدق أنبيائهم، ولا يجدون وصمة يصمونهم بها، يختلقون – لتنقيصهم– عِلَلا لا تدخل تحت الضبط وهي السحر والجنون، يقول الطبري:" كما كذبت قريش نبيها محمدًا ﷺ، وقالت: هو شاعر، أو ساحر أو مجنون، كذلك فعلت الأمم المكذّبة رسلها، الذين أحلّ الله بهم نقمته، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه، ما أتى هؤلاء القوم الذين ذكرناهم من قبلهم، يعني من قبل قريش قوم محمد ﷺ من رسول إلا قالوا: ساحر أو مجنون، كما قالت قريش لمحمد

(٢) السحر بين الحقيقة والخيال، د/ أحمد بن ناصر آل حمَد:٢٠، وقد جمع أشهر التعاريف وناقشها مبينا الجوانب التي شملها كل تعريف وكذا الجوانب التي أغفلها، ينظر:١٦ – ٢٠ من الكتاب، ولعل هذا الكتاب – بحسب ما أمكنني الاطلاع عليه – من أحسن ما كتب في هذا الباب.

ﷺ"[1]، فهو أمر عام في كل الأمم، وتأكَّد هذا المعنى أيضا بزيادة (من) في قوله (مِّن رَّسُولٍ)، يقول ابن عاشور:" وزيادةُ من في قوله: (من رسول) للتنصيص على إرادة العموم، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر، أو مجنون"[2].

ويلاحظ هنا أن اللفظ (ساحر) قد أتى على بناء اسم الفاعل، الذي يدل على "الحدث والحدوث وفاعله"[3]، "ويقصد بالحدث: معنى المصدر، وبالحدوث ما يقابل الثبوت"[4]، فهو هنا يدل على الحدث وهو السحر، والحدوث وهو استمرار فعل السحر وتجدده في كل زمان، وأن فاعله هو كل رسول يرسله الله إلى خلقه. فهؤلاء المكذبين أرادوا إلصاق هذه التهمة – من غير بينة أو دليل– بكل الرسل، فهي مستمرة وتتجدد كلما بُعث رسول من الرسل. ويؤيد ذلك أيضا مجيء لفظ (ساحر) نكرة.

وتكرر في الآية حرف الجر (من) (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ) وهذا التكرار يعطي للآية قوة تأثيرية كبيرة، حيث يؤكد على عمومية ظاهرة تكذيب كل رسول ونعته إما بالسحر أو بالجنون. كما يؤكد على استمراريتها عبر الزمان والمكان، مما يعطي انطباعًا بأن هذا النمط من التكذيب هو سمة متأصلة في النفوس الكافرة كلها.

وزيادة في تأكيد ذلك المعنى أتى أسلوب النفي والحصر (ما ...إلا) الذي أفاد انحصار الخيارات عندهم في (السحر والجنون)، وما يفعلون ذلك إلا ليصرفوا الناس عن اتباع الرسل، وليتمكنوا من التعمية على الآيات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله.

---

(١) جامع البيان: ٢٢/ ٤٤١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢١.

(٣) شرح التصريح على التوضيح: ٢/ ١١.

(٤) معاني الأبنية في العربية: ٤١.

وعقب الزجاج على الآية فقال:" أي إلا قالوا هذا ساحر، ارتفع ساحر بإضمار هو"[١]، فكأن هذا الإضمار يدل على مدى سرعتهم في الرد، فهم لم يعطوا أنفسهم الفرصة للتفكير، كأن ردهم كان مجهزا مسبقا، حتى لكأنهم توارثوه جيلا بعد جيل، فكأن كل جيل يوصي من يأتي بعده، وهذا مما يدعو إلى العجب، ويدفع للتساؤل (أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ)؟! وهو استفهام تعجيبي توبيخي، فكأن السائل يستفهم متعجبا وموبخا لهم يقول : كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطؤا عليه [٢]. وهنا تأتي (بل) لتعلن الإضراب على هذا التصور، فتنفي تواطؤهم وتواصيهم بهذا، وتؤكد على أن هذا التوافق إنما حدث ويحدث باستمرار كلما تجددت أسبابه؛ لأن الكفر ملة واحدة ولسان واحد فلما تشابهت قلوبهم تشابهت ألسنتهم وأفعالهم، فكأنهم فكر واحد ولسان واحد، يقول البيضاوي في قوله: (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ):" إضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه"[٣].

وعليه فقد تضافرت عناصر السياق اللغوي والاجتماعي والتاريخي على تأكيد الفكرة في الأذهان، وهذا – بلا شك– فيه تعزية للمصطفى ﷺ ولكل من سلك نهج الأنبياء في حمل راية الدعوة وقوبل بنفس الطريقة من المعاندين.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٥٨.

(٣) ذكر هذا المعنى الإمام الرازي. ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٩١.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٥/ ١٥١.

المبحث الثالث

سياق وصف النبيَّيْن صالح وشعيب – عليهما السلام– بالسحر

النبيان صالح وشعيب – عليهما السلام – كانا من أنبياء العرب. كان صالح [١] من ذرية نوح عليه السلام، أرسله الله تعالى إلى قبيلة ثمود، وكانوا من العرب العاربة، وكانوا يعبدون الأصنام. دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله واجتهد في نصحهم وإرشادهم. ولما طلبوا منه آية، أرسل الله لهم الناقة، لكنهم استمروا على كفرهم وعنادهم، فأهلكهم الله.

وقد وردت قصة صالح في عدة مواضع في القرآن الكريم، وغالبا ما ترد بعد قصة هود عليه السلام. وتكرر اسم نبي الله صالح عليه السلام في القرآن تسع مرات، وقيل إنه انتقل إلى حرم الله، فعاش فيه حتى مات [٢].

وأما شعيب [٣]، فقد أرسله الله تعالى إلى مدين، وكانوا قوما من العرب يسكنون مدينتهم (مدين)، وكانوا بعد قوم لوط بمدة قريبة، وشعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء، لفصاحته وبلاغته في دعاية قومه. وكان أهل مدين من أسوأ الناس معاملة، يبخسون الكيل والميزان، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها.

ووردت قصة شعيب، ومعاناته مع قومه في عدة مواضع في القرآن الكريم، وتكرر اسمه إحدى عشرة مرة [٤]، وكان بعد يوسف عليه السلام، ومات بمكة ومن معه من المؤمنين.

وُصف النبيَّان بالسحر في سياقين متشابهين، ورد ذكرهما في سورة الشعراء، فجاء وصف صالح عليه السلام بالسحر في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ

(١) ينظر: قصص الأنبياء، لابن كثير: (١٣٨– ١٥٤).

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي: ٣٨٣.

(٣) ينظر: قصص الأنبياء: (٢٣٩– ٢٥٣).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤١٠، ٤١١.

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٣، ١٥٤]، وجاء وصف شعيب عليه السلام بالسحر في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥- ١٨٧].

ذكر المفسرون أن لفظ (ٱلْمُسَحَّرِينَ) في كلا السياقين، إما مأخوذ من السِّحر بكسر السين، فالمسحور هو المخبول المخدوع الذي سُحِرَ مَرَّة بعد مَرَّة فلا ينطق بقويم(١)، أو مأخوذ من السَّحْر بفتح السين وهي الرئة، والمسحور هو المخلوق من البشر الذي ليس بمَلَك فلا يصلح أن يكون رسولا، وهو أيضا الذي يُعَلَّلُ بالطعام والشراب أي: يُخْدَع(٢)، وبالتالي لابد من تحليل السياقات لتحديد الدلالة الأقرب إلى السياق(٣).

اشترك السياقان في لفظ (ٱلْمُسَحَّرِينَ) الذي هو على زنة (مُفَعَّلِين) وهو جمع مذكر سالم واحده (مُسَحَّر) على وزن (مُفَعَّل)، بتشديد العين، دالا على المبالغة في اسم المفعول من الفعل الماضي المبني للمجهول (سُحِّر)، فزيادة المبنى تقابلها زيادة في المعنى.

(١) يُنظر: جامع البيان: ١٩/ ٣٨٤، معالم التنزيل في تفسير القرآن: ٣/ ٤٧٦، المحرر الوجيز: ٤/ ٢٤٠، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٤/ ١٤٧.

(٢) ينظر: العين (س ح ر): ٣/ ١٣٥، جامع البيان: ١٩/ ٣٨٥، المفردات في غريب القرآن: ٤٠١، المحرر الوجيز: ٤/ ٢٤٠، أنوار التنزيل: ٤/ ١٤٧.

(٣) ذكر الراغب تأويلا آخر لمعنى (المسحَّرين)، فذكر أن لفظ (المسَحَّر) معناه أنه ممَّن جُعِل له سِحْر يتوصّل بلطفه ودقّته إلى ما يأتي به ويدّعيه، وأنه بهذا التَّسحير يصرف الأنظار عن الحق، فيسحَرُ فكر الناس كما يسحر الساحر أعين الناس ويسترهبهم. وتبعه في ذلك أحد المحدثين، إلا أنه بعد تحليل السياق ترجح لدي عدم إرادة هذا المعنى؛ حيث لا يوجد ما يؤيده في السياق. ينظر: المفردات: ٤٠١، زهرة التفاسير: ١٠/ ٥٣٩٣.

واشتهر في كتب النحو أن اسم الفاعل يصح تحويله إلى صيغ أخرى ليدل على المبالغة والكثرة، ولم يأت فيها أن هذا يصح في اسم المفعول[١]، إلا أن بعض كتب الصرف نصت على وقوع المبالغة في اسم المفعول، وذكرت عدة أوزان تفيد المبالغة فيه[٢]، وقد وضح ذلك الدكتور فاضل السامرائي في قوله:" والذي يبدو أنَّ ما عُدِل عن صيغة مفعول إلى صيغة أخرى يفيد المبالغة عموما وذلك لأن النقل يفيد المبالغة في الغالب"[٣]، وعليه فلفظ (ٱلۡمُسَحَّرِينَ) في السياقين يفيد تأكيد المعنى والمبالغة فيه.

وفي قولهم (إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ) في السياقين أكَّد أولئك القوم على اتصاف النبيين بالسحر باستخدام (إِنَّمَآ) التي هي من أدوات الحصر، وزادوا في تأكيد ذلك بقولهم: (مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ) فهو أبلغ في الاتصاف بالتسحير من أن يقال (إنما أنت مُسَحَّر)[٤]؛ فالأولى تدل على كثرة وقوع التَّسحير، فالنبي واحد من كثير وقع عليهم ذلك، فهم بذلك يؤكدون على أن الأمر لكثرة وقوعه صار معروفا لديهم. وبإمعان النظر في السياقين يلاحظ أنه زيدت واو العطف في بداية قوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام (وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا)، في حين أن نفس الآية في قصة صالح جاءت من غير واو، وقد تعددت أقوال المفسرين في ذلك، وخلاصتها كالتالي:

أولا: أن قوم صالح عليه السلام في حال هذا الخطاب لم يدفعوا أمره ولم يجزموا بكذبه، وبالتالي فقولهم (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا) بدل من قولهم (إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ)، فلم

(١) ينظر: الكتاب: ١/ ١١٠، الأصول في النحو: ١/ ١٢٣.

(٢) ينظر: المفتاح في الصرف للجرجاني: ٦٩، ٧٠، شرحان على مراح الأرواح، شرح مراح الأرواح لديكنقوز وبهامشه الفلاح في شرح المراح لابن كمال باشا: ٧٢.

(٣) معاني الأبنية في العربية: ٦٤.

(٤) التحرير والتنوير:١٩/ ١٧٧.

يغلظوا له ولم يقترحوا عليه آية، وإنما طلبوا منه أن يأتيهم بآية تدلل على صدقه، يقول البقاعي:" وإتباعهم الوصف الوصف من غير عطف عليه يدل على أنهم غير جازمين بتكذيبه. فالوصفان عندهم بمنزلة شيء واحد"(١). أما قوم شعيب عليه السلام فإنهم في خطابهم معه مُشطون مبالغون في تكذيبه وصده، فأتى العطف ليعبر عن ذلك؛ حيث لم يجعلوا الخبر خبرًا واحدًا، بل جعلوه أخبارًا ثلاثة، فقالوا: (إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ)، أي: لست من الملائكة الذين هم رسل الله إلى خلقه، فلا يطعمون ولا يشربون، بل أنت من المتغذّين بالطعام والشراب، وقالوا: (وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا) أي لا فضل لك علينا، فهو خبر ثان، ثم قالوا: (وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ) خبر ثالث. ثم طلبوا منه آية محددة وهي إسقاط كسف من السماء عليهم؛ وذلك لتعجيزه ووضعه في موضع الكاذب حيث ظنوا أنه سيعجز عن ذلك، وهذا بالطبع مختلف عما طلبه قوم صالح عليه السلام (٢)، مما يدل على اختلاف أحوال كل قوم منهم وقت قولهم ذلك من حيث التردد في التكذيب أو الجزم به، وظهر ذلك في ردهم على نبيهم.

ثانيا: أن ذلك لرعي المناسبة، وذلك أن شعيبا في حديثة مع قومه، عدد خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه في قوله: ﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فطابقها العطف في جوابهم، وهذه مناسبة واضحة. وأما حديث صالح مع قومه، فلم يقع فيه من المعطوفات

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور: ١٤/٧٧.

(٢) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: (١/ ٩٦٩ – ٩٧٤).

سوى قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في البشرية بغير حرف النسق[١].

ثالثا: أن دخول الواو يقصد به إثبات معنيان منافيان للرسالة هما: التسحير والبشرية، وبهما وُصِف شعيب عليه السلام، أما عدم إثباتها فيقصد به معنى التسحير فقط وبه وُصِف صالح عليه السلام، ثم قُرِّر بكونه بشرا مثلهم[٢].

والحاصل أن دلالات الآيات في السياقين متقاربة، وأن اختلافها يكون من جهة أسلوب الخطاب بين كل نبي وقومة، ومن جهة المدى الذي وصلوا إليه في تكذيبه. بل لعل الاختلاف كان في زمن وقوع هذا الخطاب، فيبدو أن خطاب صالح مع قومه كان في بداية دعوته لهم، وأن خطاب شعيب مع قومه كان بعد أن مكث في دعوتهم مدة من الزمن، فكانوا قد بلغوا الغاية في تكذيبه، وربما كان هذا التقارب هو الذي دفع الإمام البقاعي إلى الجمع بين هذه المعاني عند تفسيره لمعنى (ٱلۡمُسَحَّرِينَ)، بأنهم " الذين بولغ في سحرهم مرة بعد مرة مع كونهم آدميين ذوي سحور، وهي الرئات، فأثر فيك السحر حتى غلب عليك"[٣].

وبعد هذا التحليل السياقي للعناصر المحيطة بكل سياق، يمكن القول بأن المسحرين في قصة صالح تعني كونهم بشرا بدلالة جملة (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ) التي أتت لتأكيد معنى الجملة الأولى، وأيضا بالنظر إلى سياق الحال حيث لم يكن قوم صالح جازمين بكذبه وإنما طلبوا منه أن يأتيهم بآية تدلل على كونه رسولا من عند الله.

---

١) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ٢/ ٣٧٧، ٣٨٨.

٢) أشار إل ذلك الزمخشري في الكشاف ينظر: ٣٣٣/٣، وينظر: مفاتيح الغيب: ٢٤/ ٥٢٨، والتحرير والتنوير: ١٩/ ١٨٦.

٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٤/ ٧٦.

وفي قصة شعيب يغلب على الظن أن المسحرين هم الذين أصابهم الخبل لكونهم سحروا مرة بعد مرة، لأن هذا أنسب لسياق القصة من حيث تعداد الأوصاف التي تنفي عن النبي شعيب الرسالة، وهي كونه مسحورا ومن البشر وليس ملكا، وكونه كاذبا بالإضافة إلى ظنهم بعدم قدرته على الإتيان بالآية التي طلبوها، وهذا بالطبع يتناسب مع فظاظتهم وغلظة أسلوبهم في الرد عليه، والله أعلم.

المبحث الرابع

سياق وصف النبي موسى عليه السلام بالسحر

إن أكثر نبي ذكر باسمه في القرآن هو سيدنا موسى عليه السلام، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل. وتكرر اسمه في القرآن ستا وثلاثين ومائة مرة، ولعل السبب في ذلك؛ أن الله تعالى فصَّل في حياة موسى ما لم يفصِّل في حياة الأنبياء الآخرين.

وكان وصف قومه له بالسحر ومناظرته مع سحرة فرعون من الوقائع التي تكرر ورودها في القرآن الكريم؛ فوردت في أحد عشر موضعا، تكررت فيها مادة (س ح ر) سبعا وثلاثين مرة. واختصت أربعة مواضع منها بمجيء الأحداث فيها مفصلة، وذلك في سور (الأعراف، يونس، طه، الشعراء)، وذلك أن الله تعالى أرسل سيدنا موسى عليه السلام إلى قومه، وعرض موسى عليه السلام ما جاء به من عند الله –عز وجل– على فرعون وقومه، فطلب منه فرعون أن يأتي ببينة على صدقه، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٧، ١٠٨] ، حينها لم يجد فرعون أمام هذا البيان الإلاهي إلا أن يرميه بالسحر؛ وما ذلك إلا لأن الفراعنة كانوا من أبرع النّاس في السحر، وكانت تلك وسيلتهم في خداع العامّة ليبقوا تحت عصا الطاعة. وقد اشتهر

الفراعنة بالسحر عبر السنين، ولا ريب أننا نسمع لليوم القصص والأخبار عن الأهرام والمومياوات وأسرارها وأسحارها. وكان فرعون يعلم هذا جيدا، فأراد أن يواجه موسى بسحرته البارعين ظنًا منه أنهم يغلبون موسى عليه السلام، ولكي ينزع من قلوب الناس أي تأثير للأدلة والبراهين القاطعة التي أتى بها موسى، فيعتقدوا بأنها سحر وأنه ليس برسول من عند الله تعالى. وهذا الموقف الذي حدث بين سيدنا موسي وبين فرعون تكرر وروده في السور الأربعة مفصلا، وهذا التكرار لابد أن هناك غاية عظمى وراءه، وعليه لا بد من تحليل هذه السياقات والمقارنة بينها لمحاولة إظهار دور السياق في إبراز علة التكرار.

وأما بقية المواضع فاقتصرت على مجرد وصف موسى أو ما جاء به من عند الله بالسحر إجمالا، وذلك في سور (الإسراء، النمل، القصص، غافر، الزخرف، الذاريات).

أما المواضع التي وردت مفصلة فبيانها كالتالي:

الموضع الأول: ورد في سورة الأعراف، يقول الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ

صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٢٠] ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣١-١٣٣]

ففي هذا السياق خمسة مشتقات لـ (س ح ر)، هي (سَاحِر، السَّحَرَة، سَحَرَ، سِحْر، تَسْحَرَ)، فجاء اسم الفاعل منه مرتين، ومثله جمع التكسير، وجاء المصدر منه مرة واحدة، وكذلك أتى الفعل الماضي والفعل المضارع.

وسورة الأعراف من السور المكية التي تركز على جانب العقيدة، والمتأمل لسياقات السورة وقصة موسى عليه السلام فيها يلاحظ أنها سُبقت بقصص بعض الأنبياء، لكن بإجمال شديد على عكس عرض قصة موسى عليه السلام؛ حيث يعرض السياق قصة موسى مع فرعون وملئه ومشهد المناظرة مع السَّحرة، ويعرض نهاية فرعون وملئه، ثم يعرض مشاهد من قصة موسى مع قومه. وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية، وتعرض منها حلقات شتى، ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب، ثم يقف وقفة طويلة في نهايتها للتعقيب على كل ما تضمنه سياق السورة.

وسياق السورة –كما يظهر للقارئ المتدبر– يركز على قضية العقيدة وحركتها على مدار التاريخ البشري، بالحديث عن وحدانية الله وربوبيته، فتبدأ بالجنة والملأ الأعلى حيث قصة آدم عليه السلام في الجنة، وامتناع إبليس عن السجود له، ثم نزوله وزوجه إلى الأرض، وانطلاق البشرية في رحلتها نحو إعمار هذه الأرض أو إفسادها، ثم عودتها إلى خالقها سبحانه

وتعالى للجزاء والعقاب. وبالتالي فالسورة تعرض رحلة البشرية من بدايتها إلى نهايتها في صورة معركة بين الحق والباطل. وورد فيها قصص بعض الأنبياء مجملا وهي قصص قوم (نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب)، ثم ركز السياق تركيزا شديدا على قصة قوم موسى فتضمن على عدة حلقات منها، بدأت بمشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، حين أعلن موسى أنه رسول من رب العالمين، فهدم التصور الذي أشاعه فرعون في قومه من أنه هو (ربُّهم الأعلى)، فما كان من فرعون إلا أن طلب منه آية على صدقه، فأجابه موسى بأن ألقى العصا فانقلبت إلى ثعبان مبين، وأخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين. حينها أدرك فرعون وملؤه أنهم أمام دعوة استثنائية وخطيرة لا بد لهم من تقويضها والتشكيك في صاحبها؛ وذلك باتهامه بأنه (لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ)، ومن الواضح أنهم بدأوا بالتشكيك في صاحب الدعوة فاستخدموا صيغة اسم الفاعل (ساحر) التي تدل على الحدث وصاحبه؛ رغبة في شخصنة الأمر وإبعاده عن كونه دعوة فعليه إلى جعله صراعا بين أشخاص، وهذه مغالطة منطقية معروفة، واستغلوا في ذلك بعض عناصر السياق ، حيث أكَّدوا الكلام – بداية – بـ (إنَّ)، ثم أشاروا إلى موسى عليه السلام باسم الإشارة (هذا) بدلا من ذكره باسمه الذي يعرفونه جيدا؛ وما ذلك إلا للتهوين من شأن موسى في عقول الناس، ثم جاء وصف اسم الفاعل بصفة العلم على بناء المبالغة (عليم)، أي: "عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصى حية، والآدم أبيض"[1]؛ وما ذلك إلا ليكافئ قوة الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام.

ثم أكد الملأ هذا المعنى بقولهم بعدها (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)، فإسناد إرادة الإخراج إلى موسى، والأرض إليهم يشير إلى أمرين، الأول:

(١) الكشاف: ٢/ ١٣٩.

خروج موسى من بينهم سابقا، فكأن موسى إنما أراد بعودته إليهم ودعوته لهم، الانتقام لخروجه من بينهم سابقا، والثاني: أن فرعون يريد أن يظهر لهم أنه حريص على بقائهم في أرضهم، فكأن الملأ هم أصحاب الأرض ويريد موسى إخراجهم منها، فلابد لهم من موافقة فرعون في القول بأن موسى ساحر؛ ليحافظوا على بقائهم في أرضهم.

بعد ذلك طلب الملأ إرجاء موسى وهرون حتى يأتوا (بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ) فأطلق على السَّحرة نفس اللفظ والوصف الذي أطلقه على موسى، وذلك لإدراكه عظم الآيات التي أتى بها موسى، فطلب أن يأتوا بمن هم مثله في المهارة والعلم بالسحر.

وقُرِئ (سَحَّار) مبالغة، جاء في معاني القراءات:" قرأ حمزة والكسائي (بِكُلِّ سَحَّارٍ) ها هنا وفي يونُس والشعراء، وقرأ الباقون ها هنا وفي يونُس (سَاحِرٍ عَلِيمٍ) فاعل، وفي الشعراء (سَحَّارٍ). قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ (سَحَّارٍ) فهو أبلغ من (سَاحِرٍ)، والقراءتان كلتاهما جيدتان" [١]، فهذه القراءة تدل على أنهم يريدون من هم أمهر من موسى.

على أن استعمال (كُل) التي تدل على شمول كل أفراد الجنس، يشير إلى أمرين، أولهما: إدراك فرعون لعظم الأمر وقوته وخطره، ولذا سيحشد له كل من له علم بالسحر شاء أم أَبَى. ثانيهما: عدم ثقته في قدرات السحرة القريبين منه أو المحيطين به، فطلب أن يأتوا بكل السحرة، فـ (كُلٌّ) "مستعمل في معنى الكثرة، أي: بجمعٍ عظيم من السَّحرة يشبه أن يكون جميع ذلك النوع"[٢].

ولما جاء (كل ساحر عليم) تجمَّع لدى فرعون عدد كبير من (السَّحرة)، و(السحرة) جمع (ساحر) جُمِعَت جمع تكسير على وزن (فَعَلَة)، وهو من جموع الكثرة [٣]، واستعماله هنا

١) معاني القراءات، للأزهري: ١/ ٤١٦.
٢) التحرير والتنوير: ٩/ ٤٥.
٣) ينظر: شرح التصريح على التوضيح: ٢/ ٥٣٣.

يدل على كثرة عدد السحرة الذين أتى بهم فرعون من كل أنحاء مصر، ليناظروا موسى عليه السلام ، وذكر القرطبي أقوالا للعلماء في أعدادهم، فمنها أنهم كانوا سبعين، وقيل: ثلاثمائة ألف ساحر من الريف، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد وثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم وما والاها، وقيل غير ذلك [1]. وسواء أخذنا بالقليل أم الكثير، فإن العبرة بكثرتهم في مقابل موسى عليه السلام.

ونص السياق على اسم فرعون في قوله: (وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ) مما يدلّ ذلك على ارتباط هذا السياق بالموضوع العام للسورة، الذي هو أمر العقيدة ووحدانية الله تعالى، فالسحرة أتوا لأجل فرعون الذي يدعي أنه (ربُّهم)، أتوا لمساعدته على التخلص من موسى ومن ثم التأكيد على ربوبيته. كما أن أسلوبهم التقريري في طلب المكافأة يؤيد ثقتهم في أن فرعون سيحقق لهم كل ما يطلبونه، في سبيل الوصول إلى غايته، (إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ)، كما يعكس هذا الأسلوب إحساس الثقة الذي يتكلمون به، فهم واثقون من قدرتهم على التغلب على ما أتى به موسى، فيشترطون الجائزة قبل المواجهة، ثم يأتيهم رد فرعون سريعا بتلبية ما يطلبون والزيادة عليه بأسلوب تقريري مؤكَّد بـ (إن، اللام): (قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ).

ولما حانت لحظة المواجهة، بدا التحدّي واضحا في تخييرهم لموسى، وبدت ثقتهم في قدراتهم فـ (قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ) يقول أبو حيان في دلالة هذا التخيير، إنه "من باب الإدلال لما يعلمونه من السِّحر وإيهام الغلبة والثقة بأنفسهم وعدم الاكتراث والابتهال بأمر موسى"[2]، فالسحرة أرادوا بث الرهبة في

١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٥٨.

٢) البحر المحيط في التفسير: ٥/ ١٣٣.

نفس موسى، فبدأوا بتخييره ليبعثوا إليه إشارة مبطنة بأنهم واثقون من قدراتهم في السحر، إضافة إلى عددهم الكبير، ومعلوم أن التقدم في الشعوذة والتخييلات أنجح للبادئ، فمن يبدأ تكون فرصته أكبر في التأثير في نفوس المشاهدين [١]. وما كان من موسى إلا أن أجابهم بثقة تامة تقابل ثقتهم بأنفسهم، وبأسلوب شديد التركيز والاختصار؛ فاقتصر فيه على فعل الأمر(ألقوا) معتمدا على السياق في توضيح المراد، أي أنتم أيها السَّحرة ما تريدون إلقاءه، وهو أمر تعجيزي [٢]، فهو يتحداهم ويظهر لهم قدرته وعزمه على إبطال سحرهم.

ويظهر السياق استجابتهم المباشرة لإذن موسى عليه السلام لهم وذلك بالعطف بالفاء التي تفيد الترتيب باتصال، أي: بلا مهلة [٣]. كما يبرز فيه الأسلوب التشويقي باستخدام (لما) التي تقتضي جوابا (فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ)، ويأتي الجواب في تعبير بديع، فما فعلوه أخذ بالأعين وأرهب القلوب، وحق من يحدث معه هذا أن ينقاد انقيادا تاما للفاعل؛ فالسَّحرة لم يأتوا ببعض الخدع البصرية فقط، وإنما بلغت درجة دقتها وإتقان صنعتها إلى تأثر العين بها، والعين هي وسيلة توصيل الأفكار إلى الإدراك، يقول ابن عاشور:" ولذلك لو قيل: سحروا الناس لأفاد ذلك، ولكن تفوت نكتة التنبيه على أن السِّحر إنما هو تخَيُّلاتٌ مرئية"[٤]، ولم يكتفوا بذلك وإنما عزَّزوا تخيُّلات السِّحر بِأقوال وأفعال تثير خوف الناظرين وتدخل الرهبة في قلوبهم (وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ) فتوهمهم أن شيئا مخيفا سيحدث، ليزداد تمكُّن التَّخيُّلات من قلوبهم.

---

١) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/ ٤٧.

٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٨/ ٢٧.

٣) ينظر: شرح الأشموني لألفية ابن مالك: ٢/ ٣٦٤.

٤) التحرير والتنوير: ٩/ ٤٨.

واستعمال السياق القرآني بناء الفعل الماضي (سَحَرُوٓاْ) يدل على الحدوث والثبوت، وهو بالطبع مناسب للسياق العام للسورة الذي يرتكز على زعزعة الاعتقادات الفاسدة الراسخة في نفوس الناس من عبادة غير الله ومنحه صفة الربوبية، فأتى الفعل الماضي ليؤكد على مدى ثبوت هذه العقيدة في نفوس الناس. ويؤيد ذلك وصف (السِّحر) الذي أتى به السَّحَرة بأنه (عَظِيمٍ) فالناس لم تصدق ذلك السحر وتلك الخزعبلات إلا لأنها بلغت الغاية في الإتقان وحسن الصنعة، ووصف السِّحر بالعظيم، الذي أتى على بناء المبالغة "لأنه من أعظم ما يفعله السَّحَرَة إذ كان مجموعا ممَّا تفرَّق بين سحرة المملكة من الخصائص المستورة بالتوهيم الخَفيَّة أسبابها عن العامة"(١).

وبعد أن ألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان عظيم ابتلع كل ما أتوا به في ثوان معدودة، فانقلب فرعون وملؤه مدحورين خائبين، بينما (أُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)، وفعلهم هذا فيه هدم لكل ما اعتقده الناس من ربوبية فرعون، فالسَّحرة الذين كانوا منذ لحظات عُدَّته وجيشه الذي حشده من كل الأنحاء، أعلنوا خضوعهم الكامل لرب الأرباب، وهذا الخضوع حدث مباشرة، فلم يفكروا ولو للحظة واحدة، وهذا ما يشير إليه مجي الفعل الماضي (أُلقي) مبنيا للمجهول، فكأنهم كانوا مدفوعين بقوة غير ظاهرة، تدب في قلوبهم وهي قوة اليقين والإيمان. كما أنهم كانوا هم أهل الاحتيال والسِّحر، فهم الأقدر على تمييز الحقيقة من التخييل، ويعرفون جيدا أنه لا يوجد بين البشر من يفوقهم في السِّحر، وأن موسى مؤيَّد من عند قوة سماوية قاهرة، فحين سجدوا كان السُّجود لتلك القوة القاهرة.

١) التحرير والتنوير: ٩/ ٤٩.

وكدأب كل معاند وطاغية، ولأن هدفه من البداية الانتصار لنفسه وليس إظهار الحق، لم يستجب فرعون وأتباعه ومن تبعهم، وإنما أمعنوا في غيهم وظلمهم، وأرادوا قطع أمل موسى عليه السلام من إيمانهم، فقالوا:

(مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) ، فمهما اسم من أسماء الشرط [١] تقتضي اسما وجوابا، فالاسم (تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ) ،والجواب: (فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) ، فهم لن يؤمنوا أيًّا ما كانت الآية التي يأتي بها موسى، وزيدت (مِن) قبل (آية) لاستغراق نفي الجنس، كما تقول (ما رأيت من أحد)[٢]. وأما قولهم (آية)، فإنهم "ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، وإنما سموها اعتبارًا لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي"[٣]. والفعل (لِّتَسْحَرَنَا) فعل مضارع يدل على التجدد والحدوث، وهو يتناسب تماما مع دلالة السياق فعنادهم وكبرهم ورفضهم للإيمان يتجدد كلما جاءتهم آية من عند الله. كل هذه الدلائل تقطع بأن أولئك القوم قد طُمِس على قلوبهم، فهو لا يقبلون الحق ويعرضون عنه مهما يكن، فبالرغم من مشاهدتهم الآيات البينات، وإيمان السَّحرة الذين كانوا موثوقين لديهم، إلا أنهم باقين على الكفر.

الموضع الثاني: ورد في سورة يونس، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا

١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، لابن أم قاسم المرادي: ٦٠٩.
٢) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي: ٣٢٤.
٣) الكشاف: ٢/ ١٤٦.

عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٥-٨٢] .

في هذا الموضع أربعة مشتقات لـ (س ح ر)، هي (السَّاحِرون، سَاحِر، السَّحَرَة، السِّحْر)، فأتى المصدر منه ثلاث مرات، واسم الفاعل، وجمع التكسير، وجمع المذكر السالم مرة واحدة لكل منهم.

وسورة يونس من السور المكية، فهي أيضا تركز على جانب العقيدة شأنها شأن كل السور المكية، فتتناول حقيقة العقيدة، ودلائل ربوبية الله تعالى، والمواجهة بين العقيدة الصحيحة وبين الجاهلية، وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعورا وعبادة وعملا. وتعرض اضطراب تصور المشركين لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وما يترتب على ذلك. تعرض السورة ذلك كله في إيقاع رخي، ونبض هادئ، وسلاسة وديعة.

وجاءت في السورة ثلاث قصص لثلاثة أنبياء هم (نوح وموسى ويونس)، فقصة نوح عليه السلام جاءت مختصرة وسريعة؛ حيث عرضت الحلقة الأخيرة من القصة في ثلاث آيات فقط، فركزت على التحدي الأخير الذي تحداهم به نوح، ثم على نجاته ومن معه وعلى هلاك المكذبين. وجاءت قصة يونس عليه السلام في إشارة عابرة سريعة في آية واحدة، لتبين جزاء من يتدارك نفسه ويثوب إلى رشده قبل الهلاك فيؤمن بالله. وأما قصة موسى عليه السلام، فتمحورت حول عاقبة التكذيب بالله، ويظهر ذلك من بداية القصة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

فالآية تركز على البعث ثم الاستكبار والإجرام، ثم تعطي إشارات بسيطة لبعض مراحل القصة، ففي مرحلة الدعوة الأولى ركزت الآيات على دعوة فرعون وملئه للحق المتمثل في عبادة الله تعالى، وعلى وصفهم له بالسحر، ثم تعجب موسى من قولهم، ثم الإتيان بالسحرة، ثم إبطال سحرهم.

بعد ذلك يُسلط الضوء على المؤمنين فتبين أنهم كانوا قِلَّة (عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ). ثم تنتقل إلى مشهد النهاية فتأتي خاتمة القصة في بيان ما حدث لفرعون في مشهد تمثيلي بديع يمثل اللحظات الأخيرة في حياة طاغية معاند. ويلاحظ أن سرد القصة هنا مختلف تمام الاختلاف عنه في سورة الأعراف التي أتت مفصلة تماما بكل الأحداث والحوارات التي دارت بين جميع الأطراف، أما في سورة يونس فتناولت – باختصار شديد– مشهد المواجهة الأولى بين موسى وفرعون ثم مشهد المواجهة مع السحرة، ثم ركزت على مشهد نهاية الطاغية المتجبر الذي يرفض عبادة الله.

يبدأ السياق بعرض إجمالي لمن بُعِث وهما (موسى وهارون – عليهما السلام –)، وللرسالة وهي (الآيات التسع التي أيد الله بها موسى)، وللنتيجة (فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ).

وهذا الوصف يفسر ردَّهم على موسى لما عرض عليهم الآيات البينات، (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ) وفيه عدة أمور، **أولا**: أن الله وصف ما أتى به موسى بأنه (الحق)، وأيد كونه حقا بأنه من عند الله، وجعل هذا في مقابل قولهم عنه إنه سحر، وفي هذا ذم شديد لهم ولكل من يأتي بعدهم ويسير على نفس النهج. **ثانيا**: أن الله تعالى عرَّف كلمة (الحق) بـ(ال) للدلالة على أن ما أتى به موسى هو الحق فقط، وأن كل ما عداه باطلا. **ثالثا**: وصف فرعون وملؤه الآيات البينات بأنها (سحر)

على بناء المصدر من (س ح ر) ليكون في مقابل الحق في بداية الآية وأكدوا كلامهم بـ (إنَّ، واللام الداخلة على المصدر). **رابعا**: أضيف اسم الإشارة (هذا) إمعانا منهم في الاستكبار والاستهزاء بما أتى به موسى.

ومن البديهي أن يقابل ردهم هذا بالاستنكار من قبل موسى عليه السلام، (قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ)، فقد اشتمل كلامه على استفهامين (أتقولون، أسحر)، ففيهما إِنْكَار إبطالي يقتضي أَن ما بعد الهمزة غير واقع وأن مدعيه كاذب [1]، وفي الثاني ما يوضح الأول، يقول القرطبي نقلا عن غيره:" قيل: في الكلام حذفٌ، المعنى: أتقولون للحق هذا سحر فـ "أتقولون" إنكارٌ وقولهم محذوف أي هذا سِحْرٌ، ثم استأنف إنكارا آخر من قبله فقال: أَسِحْرٌ هذا! فَحَذَف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم، مُنكرا على فرعون وملئه"[2]. وفي هذا السياق عدة أمور، **الأول**: زيادة قوله (لَمَّا جَآءَكُمۡۖ) فمجيء الحق إليهم مذكور في الآية السابقة (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا)، لكن زيادة هذه الجملة هنا إنما هو للتأكيد على هذا المعنى، ولاستنكار وصفهم له بالسحر. **الثاني**: تقديم كلمة (سحر) على (هذا)، فأصل الكلام (أهذا سحر)، لكن التقديم هنا أبلغ في الإنكار عليهم. وفي قوله (وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ) يلاحظ أنه استُعمِل الفعل المضارع (يفلح)، وهذا يجعل مفهوم الكلام قاعدة عامة لكل زمان، فالفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث، فكل ساحر في أي زمان أو مكان لا يمكن أن يفلح في مسعاه.

---

١) ينظر: مغني اللبيب: ٢٤.

٢) تفسير القرطبي: ٨/ ٣٦٦.

ومن الملاحظ أن السياق القرآني هنا استعمل جمع المذكر السالم (ٱلسَّٰحِرُونَ)، وهذا يشير إلى فرق دقيق بين صيغة جمع المذكر السالم (ساحرون)، وصيغة جمع التكسير (سحرة)، فالسياق القرآني يستعمل بناء جمع التكسير (سحرة) للدلالة على المجموعة من السحرة التي أتى بها فرعون لمناظرة موسى عليه السلام، فيكون هذا البناء دالا على جماعة محددة، وأما هنا في قوله (وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ) وهي المرة الوحيدة التي أتى فيها اللفظ على بناء جمع المذكر السالم في القرآن الكريم، فأطلقت على جميع أفراد الجنس، فلعل الله تعالى أراد لها أن تكون مثلا وآية على أن كل الساحرين في كل زمان ومكان هم خاسرون مهما فعلوا.

ولما أنكر عليهم موسى عليه السلام وصفهم الآيات البينات بالسحر مع أن الفرق جلي بينها وبين السحر الذي يعرفونه جيدا، اخترعوا حجة جديدة وهي أن موسى يريد الاستكبار عليهم وصرفهم عن اتباع ما وجدوا عليه آباءهم، وأكدوا رفضهم الإذعان والخضوع لله فقالوا (أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ). وجملة (وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) جملة اسمية أرادوا منها التأكيد على مداومتهم على رفض مبدأ الإيمان بالله وعبوديته، وذلك ليقطعوا أمل موسى عليه السلام من إيمانهم، يقول ابن عاشور: "وصيغت جملة: وما نحن لكما بمؤمنين اسمية دون أن يقولوا وما نؤمن لكما لإفادة الثبات والدوام وأن انتفاء إيمانهم بهما متقرّر متمكّن لا طماعية لأحد في ضده"[١].

وهنا نهض فرعون بالأمر وطلب السحرة لأجل المناظرة (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ)، وهذه هي نفس طريقة طلب السحرة الواردة في سورة الأعراف (يَأْتُوكَ

١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٥٢.

بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ) من حيث طلب الإتيان (بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ)، ففيهما أمر بإحضار جميع السحرة المتمكنين في علم السحر لأنهم أقدر على المناظرة، والإتيان بما يفوق ما أتى به موسى، فالصفة (عليم) قيد وشرط لـ (ساحر)، فليس كل ساحر عليم. ويختلف السياقان في أن الكلام في سورة الأعراف كان على لسان الملأ، أما في سورة يونس فقد أسند إلى فرعون، فكأنه أراد إيقاف الحوار الدائر بين موسى والملأ، وإظهار سطوته وسيطرته وأنه صاحب الأمر والقرار في هذا، بدلالة إسناد الإتيان إلى نفسه (ائتوني) وهذا يتناسب مع سياق سورة يونس التي تركز على إظهار معتقد المكذبين وإبراز عاقبتهم، فأضاف الكلام لنفسه لأنه إمام المكذبين.

ثم يمضي السياق مركزا على أهم مراحل القصة (فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ)، فلم تُذكر هنا الكثير من التفاصيل على عكس الوارد في سورة الأعراف؛ لأن السياق هنا يركز على الخواتيم والعبرة منها.

وهنا تبرز الثقة الشديدة التي يتحلى بها موسى عليه السلام حين خاطب السحرة بفعل الأمر (أَلْقُواْ) مركَّزا مختصرا، ولم ينص على ما يلقونه من حبال أو عصي، وإنما أتى بلفظ عام (مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ)؛ ليشعرهم أنه لا يكترث ولا تتأثر ثقته في آيات الله مهما بلغت قوة ما معهم من وسائل وأدوات وحيل [1].

وتتجلى ثقة موسى ويقينه الشديد في وعد الله وأنه الإله الحق المستحق للعبودية، في قوله (مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ) ففي لفظ (السِّحر) قراءتان، "قرأ أبو عمرو {مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ} بالمد جعل ما بمعنى أي والتقدير أي شيء جئتم؟ آلسحر؟ هو استفهام على جهة التوبيخ لأنهم قد علموا أنه

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٢٥٤.

سحر، فقد دخل استفهام على استفهام فلهذا يقف على قوله {مَا جِئْتُمْ بِهِ} ثم يبتدئ {السحرُ} بالرفع وخبره محذوف، المعنى (السحر هو). وقرأ الباقون {مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ} و {مَا} على هذه القراءة في معنى الذي جئتم به السحر والذي ابتداء والسحر خبر الابتداء"(١). وعلى قراءة الجماعة جاء لفظ (السحر) معرفا ب(ال) للدلالة على التح، فما جاءوا به هو السحر على وجه التح، ردا على قولهم السابق (إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)، يقول البقاعي: "والتعريف إما للعهد وإما للحقيقة وهو أقرب، ويجوز في قراءة الجماعة أن يكون خبرًا لما يقصد به الحصر، أي هو السحر لا ما نسبتموه إليّ"(٢).

وهنا، يأتي السياق ببعض القوانين الربانية الصالحة لكل زمان ومكان (إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥ) (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ) (وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ)، ففيها جميعًا، استعمل الفعل المضارع (سيبطله، لا يصلح، يحق) للدلالة على حدوث هذا وثبوته وديمومته في كل وقت ومكان. ويتأكد ذلك المعنى بالقوة الملحوظة في السياق بسبب توالي هذه القوانين لا يفصل بينها أي كلام أو أية تفاصيل.

بعد ذلك يؤكد السياق على أن الذي يرفض تلك القوانين أو يعاندها أو حتى يكرهها إنما هو من المجرمين فيقول: (وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ). وأُسنِد (الإبطال، وعدم الصلاح، والإحقاق) للفظ الجلالة (الله) للتأكيد على أنه القوي المتحكم المصرف لكل الأمور، وعلى أنه هو النافع والضار، وعلى أن الضرر إذا وقع في بعض الأحيان فهو إنما يقع بإذن الله تأكيدا لقوله تعالى في سياق الحديث عن سحر هاروت وماروت: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

١) حجة القراءات، لابن زنجلة: ٣٣٥. وينظر: السبعة في القراءات، لابن مجاهد: ٣٢٨.

٢) نظم الدرر: ٩/ ١٧٤.

وبعد هذا العرض يتبين أن الحديث عن السحر في سياق سورة يونس، جاء متناسبا مع السياق العام للسورة والغرض العام منها. وجاءت فيه بعض الحقائق المرتبطة بقضية السحر، ففيها: **أولا**: إظهار لحقيقة السحر، وهو أنه كل الأعمال الخارقة للطبيعة المبنية على مخالفة لأوامر الله وسننه في الأرض. **ثانيا**: أن هذه الأعمال لا يقع النفع أو الضرر بها إلا بإذن الله. **ثالثا**: أن المنشغلين بهذه الأعمال إنما هم المفسدون المجرمون الذين تجب مخالفتهم والابتعاد عنهم. **رابعا**: أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

الموضع الثالث: ورد في سورة طه، يقول تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ

مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه: ٥٥-٧٥]

في هذا السياق أربعة مشتقات لـ (س ح ر)، هي (سَاحِران، السِّحْر، سَاحِر، السَّحَرَة)، فأتى المصدر ست مرات، واسم الفاعل ثلاث مرات، وجمع التكسير مرة واحدة.

وترتكز سورة طه من بدايتها إلى خاتمتها على التعريف بالله – تعالى– وبيان دلائل ألوهيته، وعلى تأييد النبي ﷺ وبيان وظيفته وحدود تكاليفه، وتركز على رعاية الله لرسله وأنبيائه. ويغمر السورة جو من الهدوء تستمده من أحداث تخشع لها القلوب وتسكين لها النفوس وتعنو لها الجباه، ففيها يتجلى الرحمن – تبارك وتعالى – على الوادي المقدس على عبده موسى، ويناجيه تلك المناجاة الطويلة، وفيها تعنو الوجوه للحي القيوم وتخشع الأصوات للرحمن في موقف الحشر العظيم فلا تسمع إلا همسا.

ويقص الله – سبحانه وتعالى – على نبيه محمد ﷺ قصة نبيه موسى عليه السلام ليعرض عليه نموذجا لرعايته – سبحانه وتعالى – لمن اختارهم لحمل رسالته وتبليغها لعباده.

وتبدأ القصة بمشهد مناجاة الله لموسى عليه السلام وهو في طريقه عائدا بأهله من مدين إلى مصر، في عرض بديع يجعل القارئ يشعر بأنه لا يقرأ الأحداث، وإنما يراها رأي العين. وفي تلك الأثناء يكلفه الله – تعالى – بدعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله، ويمنحه بعض الآيات التي تؤيده في دعوته، فيناجي موسى الله داعيا أن يشرح الله صدره وأن ييسر أمره، ويطلب أن يعينه الله بمعين من أهله، أخيه هارون. بعد ذلك تسلط الآيات الضوء على رعاية الله له وليدا حين ألقي في اليم، ثم حين كبر وشب في قصر فرعون وحتى رحيله إلى مدين ثم عودته منها. وهنا يأتي التكليف له ولأخيه بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الإقرار بألوهية الله ووحدانيته، وطمأنت الله لهما بأنه معهما يسمع ويرى.

بعد ذلك تعرض السورة الحوار الذي دار بين موسى وفرعون، حيث تحدث فيه موسى عليه السلام عن الله، وذكر بعض الأدلة على ربوبية الله – تعالى –، ثم يأتي الحديث عن السحرة ويوم الزينة، ثم إقرار السحرة بوحدانية الله، ونهاية فرعون، ثم تأتي الحلقة الأخيرة من القصة بعبادة قوم موسى للعجل.

والأمر المهم في سياق السورة أنه يدور حول مشاهد متعددة من قصة نبي الله – تعالى – موسى عليه السلام، لكن الغرض الذي من أجله سيقت هذه القصة، وهو بث الطمأنينة في قلب النبي محمد ﷺ بمشاهد عملية للرعاية الإلاهية، هذا الغرض يتحكم بشكل أساسي في الجزء المعروض من القصة، بل يتحكم في التركيز على بعض اللحظات في كل مشهد، ومن ثم التفصيل فيها، وترك ذلك التفصيل في غيرها، بل إنه قد لا يأتي عليها بالأساس، مع أنها حدثت، ولكن لا يستلزم السياق ذكرها بناء على الغرض العام للسورة.

وقد صرح السياق بالغرض العام للسورة في عدة مواضع، من بينها قوله تعالى في بداية مشهد المواجهة بين موسى وفرعون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾، فهذه المعية المؤكَّدة بالسماع والرؤية واضحة جلية في كل تفاصيل القصة.

ويبدأ السياق القرآني في عرض مشهد المواجهة بين موسى وهارون –عليهما السلام – وفرعون، بإخبارهم له بأنهما رسولا ربهِ إليه، وطلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل. ومن المعلوم أن بني إسرائيل عاشوا في مصر من أيام يوسف عليه السلام وكان فرعون قد تسلط عليهم زمنا، ولهذا طلب موسى وهارون منه أن يكف عن تعذيبهم. وبعد أن أجاب موسى على أسئلة فرعون كلها، وعرض بعض الآيات الكونية التي تدل على ربوبية الله تعالى، انتقل السياق مباشرة إلى اتهام فرعون لموسى بالسحر، حيث لم توجد حاجة لذكر تفاصيل عرض الآيات الحسية (العصا، واليد)، ربما لأنها ذُكرت في البداية عندما كلَّم اللهُ تعالى موسى عليه السلام.

وفي قول فرعون (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ) اعتراف ضمني بخوفه الشديد من موسى ومن الآيات التي أتى بها من عند الله، وظهر ذلك جليا من عدة أمور، **الأول**: أن فرعون بدأ كلامه بالاستفهام الاستنكاري(أَجِئْتَنَا)، وأضاف ضمير المتكلم للجمع (نا) ثلاث مرات، ليجعل نفسه مع بني إسرائيل وأهل مصر في فريق واحد، لأنه يدرك تماما أن نجاح موسى عليه السلام في مسعاه يعني زوال ملك فرعون، فجمع نفسه مع الناس لينال استعطافهم وتأييدهم. **الثاني**: في قوله (بِسِحْرِكَ)، حيث إن دخول الباء التي تفيد التعليل على المصدر المضاف إلى ضمير المخاطب العائد على موسى، يوحي بذلك الخوف الشديد الذي سيطر على فرعون في ذلك الوقت، فجعل خروجه وأهل مصر منها بسبب ما سمَّاه (سحر موسى)، مما يعني أن ما أجراه الله على يد موسى عليه السلام من معجزات يرقى فوق مرتبة السحر فمصر فيها الكثير من السحرة لكن أحدا منهم ولا حتى جميعهم كانوا قادرين على إخراج فرعون منها. **الثالث**: أنه أتبع الاستفهام الاستنكاري بالقسم في قوله (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ)، مما يدل على شدة غضبه، يقول الطاهر ابن عاشور:"

والاستفهام في أجئتنا إنكاري، ولذلك فرع عليه القسم على أن يأتيه بسحر مثله، والقسم من أساليب إظهار الغضب"[١]، كما أن غضبه كان ممزوجا بالتحدي بأن يجتهد في الإتيان بأي شكل من أشكال السحر يماثل سحر موسى أو يرتقي لدرجته، ولهذا نَكَّر المصدر فقال: (بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ).

وهنا تأتي قمة الرغبة في التحدي بتحديد مكانه وزمانه، وإضافة بعض المؤكدات، أولها: أنه ترك لموسى تحديد المكان والزمان فوجه إليه فعل الأمر (فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ)، ثم دخول لا الناهية على الفعل في (لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ) وإضافة ضمير المتكلم (نَحۡنُ)، ثم تكرار لا الناهية قبل ضمير المخاطب، وفي كل هذا كان يقدم الضمير الذي يشير به إلى نفسه، ولا شك أن في كل هذا مبالغة في التحدي وتشديد على عدم الإخلاف[٢]. وأشار السياق إلى شدة الحرص على جمع أكبر عدد من الناس ليشهدوا تلك المناظرة، وذلك أن الموعد هو يوم عيد لهم، والوقت هو وقت الضحى وهو أفضل أوقات النهار، واستخدم الفعل المبني للمجهول(يُحۡشَرَ)، الذي يدل على الجمع مع سوق[٣]، وعلى أن فيه مظنة إكراه، فمن لن يأت مختارا سيساق كارها. وهذا الجزء من القصة لم تتم الإشارة إليه في السياقين السابقين، وهو هنا يدل على مدى استعدادهم قبل المناظرة، ليقابله بخذلانهم بعدها.

بعد ذلك بدأ كل فريق في التجهز، ثم حانت المواجهة، فكان فرعون وملؤه وسحرته في جانب، وموسى وهارون في الجانب الآخر. ويلاحظ أن هذا السياق لم يأت على ذكر

---

١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٤٥.

٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٨.

٣) ينظر: مقاييس اللغة (ح ش ر): ٢/ ٦٦.

الحوار الذي دار بين فرعون والسحرة عن المكافأة قبل بدء المواجهة؛ وذلك أنه يركز على الغرض العام للسورة.

ولما نصح موسى عليه السلام السحرةَ وخوفهم وبين لهم عاقبة فعلهم، وقع الخلاف فيما بينهم، (فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ) وفي هذا السياق مبالغة في إخفاء هذا الخلاف، وهذه المبالغة مفهومة من أمور ثلاثة، الأول: أن تنازعهم كان بينهم، يقول ابن عطية: "وقع في نفوسهم من مهابته أمر شديد، فتنازعوا أمرهم، والتنازع يقتضي اختلافا كان بينهم في السر"(١). الثاني: أنهم تناجوا، والتناجي لا يكون إلا سرًّا. الثالث: زيادة قوله (وَأَسَرُّواْ) الذي يدل على حرصهم الشديد على أن تكون النجوى في الخفاء (٢).

ولما تنازعوا أمرهم في الخفاء – ولا شك أن هذا التنازع كان في أمر موسى –، استقر أمرهم على مناظرة موسى، ولبث الثقة في نفوسهم قالوا (إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ)، وفيه دلالتان، **الأولى**: التهوين والتقليل من شأن موسى وهارون – عليهما السلام –، وهذا المعنى يستفاد من استخدام أداة النفي والحصر (إن، اللام)، والتي تعني (ما هذان إلا)، واستخدام اسم الإشارة (هذان). **والثانية**: حثٌّ على التجمع والثبات على المواجهة، بقولهم (يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ) فموطن الإنسان ومنزلته فيه هما أهم ما يدافع عنه الإنسان، وكأنهم يقولون لبعضهم أن نتيجة هذه المواجهة ستحدد إن كانوا سيحتفظون بكل ما يملكون أو سيفقدون كل شيء (٣)، ولهذا

---

١) المحرر الوجيز: ٤/ ٥٠.

٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٥٠، التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٥١.

٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٢/ ٧١.

تكرر ضمير المثنى (يريدان، بسحرهما، يذهبا) في مقابل ضمير الجمع (يخرجاكم، أرضكم، طريقتكم)، وهذا مما يشحذ الهمة للنصر في تلك المواجهة؛ لأن الخاسر فيها سيخسر كل شيء.

وانفرد هذا السياق بالجمع بين موسى وهارون – عليهما السلام – في الوصف بالسحر (لساحران، بسحرهما، يذهبا)، مع أنه لم يثبت أن هارون قد أجرى الله على يديه شيئا من المعجزات، فهو وإن رافق موسى عليه السلام في دعوته، إلا أنه لم يكن هو المقصود بالدعوة منذ البداية، وإنما رافقه بعد أن طلب موسى من ربه – تبارك وتعالى – أن يجعل له وزيرا ومعينا من أهله. ولعل السحرة جمعوا بين موسى وهارون في الوصف بالسحر؛ لأنهما اشتركا في دعوة أهل مصر للإيمان بالله، فتوجه السحرة إليهما بالكلام معا، أو أنهم أرادوا أن يرهبوا الناس منهما معا، وأن يحقرا من شأنهما معا.

وهنا يبين السياق بعض المشاهد التي تزرع الرهبة في القلوب، والتي تمثلت في قولهم: (فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ) ففيه دلالة على التجمع للتجهز، ثم الاصطفاف، ولأن عددهم كان كبيرا [1]، فإن اجتماعهم معا ثم اصطفافهم – لا شك – سيبعث الرهبة في نفوس الحاضرين [2]. وقد عبر القرآن عن ذلك في سياق سورة الأعراف (**سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ**)، فكانت الرهبة هي سلاحهم الأول، يبثونها في نفوس الحاضرين، فيكون خداعهم أسهل.

وعبر القرآن عن سحر السَّحرة بقوله (يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ)، ففي هذا إشارة إلى أن سحر السحرة كان تخييلا للرائين، باستغلال الخصائص الفيزيائية للمواد، فهي لا تسعى

---

١) سبق الحديث عن عددهم في التحليل السياقي لموضع سورة الأعراف.

٢) ينظر: الكشاف: ٣/ ٧٣.

على الحقيقة، وتأكد هذا المعنى بقوله تعالى على لسانهم (فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ)؛ حيث وصفوا فعلهم بالكيد، وهو المكر [١]، الذي بدأ ببث الرهبة في النفوس وانتهى بالتخييلات.

ويعكس السياق عظمة ما فعله السحرة لدرجة أن موسى عليه السلام شعر بشيء من الخوف في نفسه، رغم يقينه التام بأن ربه معه، يعلم ويرى، وأن الله تعالى ناصر عبده لا محالة. واختلف المفسرون [٢] في دلالة ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾، وخلاصة ذلك أنه وقع له من الرهبة ما يقع لأي إنسان، وهذا أمر طبيعي، فسيدنا موسى هو بشر في نهاية الأمر ويقع له ما يقع للبشر. لكنه ضبط ذلك بأن وقع في (نَفۡسِهِۦ)، فإضافة هذا اللفظ للسياق يدل على أن خوفه كان داخليا فلم يلاحظه أحد، كما أن خوفه كان بالتأكيد على قومه، فخاف أن يُفتن قومه بسبب ما رأوه من السحرة.

ولا شك أن في هذا السياق ما يبعث الطمأنينة في نفس النبي ﷺ، فهو يخبره بأنك بشر، يعتريك ما يعتري البشر من المشاعر، لكن مهما حدث فربك معك يراك ويسمعك وسينصرك مهما بلغت قوة خصومك. ولهذا طمأن الله تعالى نبيه موسى بأربعة أمور: نهي، وإثبات، وأمر، ونتيجة، (لَا تَخَفۡ) (إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ) (أَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ) (تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ). وفي قوله (وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ)، عبر عن العصا بقوله (مَا فِي يَمِينِكَ) باستخدام (ما) الموصولة، ولم يقل (وألق عصاك)، لأحد سببين، أولهما: أن يكون تصغيرا لها، فتلك العصا الصغيرة الوحيدة تتلقف – بقدرة الله – حبالهم وعصيهم على كثرتها وعظمها، والثاني: أن يكون تعظيما لها، وإظهارا لقوتها وتفوقها على كل عصيهم

١) ينظر: الصحاح (ك ي د): ٢/ ٥٣٣.

٢) ينظر: الكشاف: ٣/ ٧٣، المحرر الوجيز: ٤/ ٥١، مفاتيح الغيب: ٢٢/ ٧٣، ٧٤، التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٥٩.

وحبالهم[1]. ويلاحظ أن الفعل (تَلْقَفْ) أتى على بناء المضارع دالا على المستقبل، وفي ذلك تأكيد على حدوثه، فكأن هذا يحدث أثناء كلام الله مع موسى، وهذا أيضا مما يزيد الطمأنينة في نفسه.

ويأتي بعد ذلك أسلوب الحصر (إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ)، ليثبت أن ما أتى به السحرة من سحر، ما هو إلا شيء هين ضعيف، إنما هو كيد. كما أن استعمال الفعل (صنعوا) يدل على أنه شيء مصنوع بعمل بشري، ولا يمكن أن يرقى إلى منزلة قدرة الخالق سبحانه. وأتى لفظ (ساحر) موحدا ولم يجمع مع أنهم جماعة كبيرة؛" لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد، فلو جمع، لخيل أنّ المقصود هو العدد"[2]، وبهذا يكون القانون العام أن كل ما يأتي به أي ساحر في أي وقت وأي مكان ما هو إلا كيد. ويعقبه قانون آخر، في قوله تعالى: (وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ)، فمهما فعل فإنه لا يحالفه الفلاح أبدا.

وهنا يبرز سؤال: لماذا نكَّر ساحر أولا ثم عرفها بعد ذلك، ويجيب عليه الإمام الرازي بقوله:" الجواب: كأنه قال: هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر، وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه، ولا شك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ"[3]، وفي هذه العبارة تطمين لموسى ولكل من يأتي بعده، وهذا أيضا يتماشى مع القانون الآخر (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ).

ثم يأتي مشهد إيمان السحرة برب العالمين، واعتراض فرعون على ذلك ليسدل الستار على هذا الموقف العظيم الذي يتجلى فيه بوضوح لطف الله ورحمته وتأييده لمن ينصره.

---

١) ينظر: الكشاف: ٣/٧٤.

٢) السابق: ٣/٧٥.

٣) مفاتيح الغيب: ٢٢/٧٥.

الموضع الرابع: ورد في سورة الشعراء، يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٤٠-٥٢]

في هذا السياق أربعة مشتقات لـ (س ح ر)، هي (ساحر، سَحَّار، السَّحَرة، السَّحْر)، فأتى اسم الفاعل وصيغة المبالغة منه مرة واحدة، وجاء المصدر منه مرتين، وجمع التكسير أربع مرات.

سورة الشعراء سورة مكية، تركز على موضوع العقيدة ووحدانية الله تعالى. والقصص يشغل السورة إضافة إلى مقدمة وتعقيب. وهي في هذا تركز على تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عما يلقاه من تكذيب قومه وإيذائهم له، فالسورة من بدايتها تهون على رسول الله تعالى وتعاتبه على شدة همه بسبب عدم إيمانهم بالله تعالى، ثم تذكر له أمثلة من قصص الأنبياء الذين بذلوا وسعهم مع أقوامهم ومع ذلك لم يؤمنوا. ويغلب جو الإنذار والتكذيب على قصص السورة، وتركز أيضا على عاقبة المكذبين وما ينزله الله بهم من عذاب، ليكون إنذارا لمشركي مكة.

وتأتي قصة موسى عليه السلام في مقدمة قصص السورة، ويُعرض فيها حلقة واحدة من القصة، وهي حلقة الإرسال والتكذيب وعاقبته من غرق فرعون وجنده ونجاة موسى ومن معه. وهي بذلك تتماشى مع السياق العام للسورة فتعرض جزءا من معاناة موسى ومجادلة الكافرين له ثم عاقبة الكفر.

وهذا الموضع هو آخر المواضع التي عرضت قصة اتهام موسى عليه السلام بالسحر مفصلة.

وتبدأ قصة موسى بتكليف الله له، واستعانته بهارون عليه السلام، ثم تنتقل إلى مشهد التبليغ ودعوة فرعون وقومه للإقرار بوحدانية الله، و" لما انقطع فرعون في الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب، وهذه أبين علامات الانقطاع، فتوعّد موسى عليه السلام بالسجن حين أعياه خطابه"[1]، فعرض موسى عليه الآيات الحسية (العصا واليد)، فاتهموه بالسحر.

وصدر الاتهام هنا على لسان فرعون بشكل مباشر (إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ) وبالتالي خوَّف الملأ من الانقياد له وأغراهم بقوله (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)، فاتفقوا على جمع السحرة (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) وهذا المشهد

١) المحرر الوجيز: ٤/٢٢٩.

يشبه – إلى حد ما – نظيره في سورة الأعراف، إلا أنه انفرد هنا بالحديث عن عامة الناس وكيفية حثهم على الاجتماع (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) فالاستفهام (هل) ليس مستعملا على حقيقته، لكنه "مستعمل في طلب الإسراع بالاجتماع"(١)، وبين علة اجتماعهم وهي اتباع السحرة إذا غلبوا، وليس معناه" نتبعهم في السحر، إنما أراد نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا والإبطال على معارضتنا"(٢).

وفي قوله (فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) ،دلت الفاء على أن جمع السحرة وقع في أسرع وقت، وذلك أن الفاء حرف عطف يفيد" التعقيب في كل شيء بحسبه، كما يقال: تزوج فولد له، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل"(٣). وأتى الفعل (جُمِع) على بناء المجهول؛ لعدم تعيُّن جامعين وقائلين (٤)، أو ذلك دلالة على عدم الاهتمام بذلك أو أن الفاعل مفهوم ضمنا. ولم يذكر الزمان والمكان؛ لأنه سبق ذكره في سورة طه.

ولما جاء السحرة قالوا لفرعون (أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا)، وهو مماثل لما ورد في سورة الأعراف، لكنه هنا بزيادة همزة الاستفهام، وعلل لذلك الطاهر بن عاشور بقوله:" وهو تفنن في حكاية مقالتهم عند إعادتها لئلا تعاد كما هي"(٥).

ويلاحظ أنه لم يذكر في هذا الموضع تخيير السحرة لموسى في أن يلقي أولًا، وإنما المذكور قول موسى لهم: (أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ)، واستعملت ما الموصولة فيه لتفيد تحقير وتصغير ما يأتون به من سحر.

---

١) التحرير والتنوير: ١٩/ ١٢٥.
٢) المحرر الوجيز: ٤/٢٣٠.
٣) مختصر مغني اللبيب: ٢١٤.
٤) التحرير والتنوير: ١٩/ ١٢٥.
٥) السابق: ١٩/ ١٢٦.

ويلاحظ أن قوله (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) قريب لما تقدم في سورتي الأعراف وطه. وأيضا ما حدث بعد ذلك من سجود السحرة وإيمانهم ثم اعتراض فرعون على ذلك لعدم استئذانهم له، فأوله – وهو إيمان السحرة وسجودهم – قريب مما تقدم في سورة الأعراف، وآخره – وهو اعتراض فرعون وتوعده لهم بتقطيع الأطراف والصلب – قريب مما تقدم في سورة طه [1].

ويحسن بنا أن نختم الحديث عن هذه المواضع بقول الطاهر ابن عاشور:" وكذلك شأن القرآن في قصصه ألا يخلو المعاد منها عن فائدة غير مذكورة في موضع آخر منه تجديدا لنشاط السامع"[2]، وأضيف أن التكرار في بعض المواضع يكون حسنًا لما فيه من ترسيخ الفكرة في ذهن السامع عند تكرارها مرة بعد مرة، فإذا ترسخت الفكرة تبعها تغير السلوك.

وأما المواضع المختصرة فبيانها كالتالي:

الموضع الأول: في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]

الموضع الثاني: في قوله تعالى:﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل: ١٢-١٣]

الموضع الثالث: في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦]

---

١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/ ١٢٨.

٢) السابق: ١٩/ ١٢٦.

الموضع الرابع: في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨ ﴾ [القصص: ٤٧-٥٠]

الموضع الخامس: في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ ﴾ [غافر: ٢١-٢٥]

الموضع السادس: في قوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ٤٩ ﴾ [الزخرف: ٤٨-٥٤]

الموضع السابع: في قوله تعالى:﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩﴾ [الذاريات: ٣٨-٤٢]

وردت في هذه المواضع أربعة مشتقات لـ (س ح ر)، هي (مسحورا، سحر، سحران، ساحر)، فورد اسم المفعول والمثنى مرة واحدة، وورد المصدر مرتين، واسم الفاعل ثلاث مرات. وكلها وردت في شكل إشارات سريعة لاتهامهم موسى عليه السلام بالسحر.

ففي موضع سورة القصص وُصف السحر بأنه مفترى، من "فَرَى يَفْري فلانٌ [الكَذِبَ] إذا اختلقه. والفِرية: الكَذِبُ"[١]، وأرادوا بذلك إخراج ما أتى به موسى من حيز المعجزة إلى الكذب الظاهر على الله، والقول بأنه سحر كسائر أنواع السحر[٢].

وفي سورة الزخرف، قال أهل مصر لموسى (**يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ**). وكانوا قد طلبوا منه العون عندما نزل بهم العذاب من عند الله، وفي هذا إقرار منهم بنبوته وبربوبية

١) العين (ف ر ى): ٨/ ٢٨٠.

٢) ينظر:الكشاف: ٣/٤١١.

الله تعالى، فهو وحده القادر على أن يرفع عنهم العذاب. لكن قولهم (**ٱلسَّاحِرُ**) لا يقصد به الدلالة الحقيقية التي تتبادر إلى الذهن، فدلالته هنا دلالة مجازية؛ حيث قصدوا وصفه بالعلم، بجامع المهارة وإتقان الصنعة والتأثير على الجماهير في كل، يقول الطبري:" إنَّ الساحر كان عندهم معناه: العالم، ولم يكن السِّحر عندهم ذمًّا، وإنما دَعَوْهُ بهذا الاسم، لأن معناه عندهم كان: يا أيها العالم"(١). لكنهم وإن لم يتهموه بالسحر، إلا أنهم استعملوا أداة النداء (يا) التي تستعمل لنداء البعيد، يقول الإمام البقاعي:" فنادوه بأداة البعد مع الإفهام بـ (قالوا) دون (نادوا) أنه حاضر إشارة إلى بعده من قلوبهم "(٢). وبهذا تكون دلالة اللفظ قد خرجت عن معناها الأصلي إلى معنى آخر مجازا.

وبعد هذه التطوافة في سياقات (س ح ر) التي ارتبطت بنبي الله موسى عليه السلام، يلاحظ أن دلالتها أتت حقيقية في كل السياقات باستثناء سياق سورة الزخرف ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ فدلت مجازا على العالم، واستمدت هذه الدلالة من أمرين، أولهما لغوي: وهو العلاقة التي تجمع بين الساحر والعالم، وهي إتقان الصنعة والتأثير على الناس، وثانيهما عرفي اجتماعي: وهو أن السحر في ذلك الوقت لم يكن ذما، فكان يوصف به الماهر المتقن. وأما الدلالة الحقيقية له دالة على معنى السحر المعروف.

١) جامع البيان: ٢٠/ ٥٠٩.

٢) نظم الدرر: ١٧/ ٤٤٤.

المبحث الخامس

سياق وصف النبي سليمان عليه السلام بالسحر

وقصه هاروت وماروت

سيدنا سليمان عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن نبي الله سيدنا داوود عليه السلام، ووريثه في النبوة والملك، يقول الله تعالى: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾**﴾ [النمل: ١٦]، ولأنه كان نبيا ملكا، فلقد أعطاه الله تعالى العلم والملك العظيم وكان له جنود من الإنس والجن والطير، وجعله قادرا على فعل الكثير من الأمور التي لا يقدر على فعلها البشر العاديون كتسخير الريح تجري بأمره ، وتسخير الشياطين يعملون له ما يشاء ، وفهم لغة الطير وغير ذلك.

وقد ورد ذكر اسم نبي الله سليمان في القرآن سبع عشرة مرة[١] في سبع سور، هي (البقرة، النساء، الأنعام، الأنبياء، النمل، سبأ، ص).

وأما عن ارتباط السِّحر بسيدنا سليمان عليه السلام، فقد ورد هذا في موضع واحد في القرآن الكريم، في قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ

---

١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٣٥٧، ٣٥٨.

وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

وردت هذه الآية في سورة البقرة التي هي أطول سور القرآن الكريم، وهي سورة مدنية، من أوائل ما نزل على النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة. وتضم السورة عدة موضوعات، تدور حول بناء المجتمع المسلم الناشئ في المدينة، وإعداد أفراده لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، فتوضح صفات أهل الإيمان وغيرهم من الكافرين والمنافقين، وتسلط الضوء على أوصاف وأخلاق أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وتركز السورة بشكل أساسي على اليهود لأنهم كانوا يشاركون المسلمين الإقامة في المدينة، فتعرض موقفهم من الدعوة الإسلامية فيها، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وتستعرض العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وذكر المفسرون عدة أسباب لنزول هذه الآية والآية التي بعدها، وهذه الأسباب في مجملها من الإسرائيليات [١]، والذي يعنينا منها أنها نزلت لتكذيب بني إسرائيل حين رموا نبي الله سليمان عليه السلام بأنه كان يسوس الناس ويسخر الشياطين والرياح بالسحر، يقول الشعراوي:" إن الآية الكريمة تعرضت لأمر قد شاع عند بعضٍ من بني إسرائيل، فأبطل الله قولهم هذا [٢].

جاءت هذه الآية والآية التي قبلها في سياق بيان ما عليه اليهود من الشر والفساد، فالسياق القرآني في سورة البقرة من بدايته يسلط الضوء على بعض أوصاف وأفعال بني إسرائيل، وبعض التصرفات الشنيعة التي قاموا بها تجاه أنبيائهم، وفي قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ

١) ولتفصيل ذلك ينظر: جامع البيان: ٢/ ٤٠٥ وما بعدها، أسباب النزول، للواحدي: (٣١- ٣٣)، وهي مجموعة ومرتبة في بحث: السحر حقيقته وحكمه دراسة تحليلية في ضوء الآيتين(١٠٢- ١٠٣): (٤٠٨_ ٤١٤).

٢) ينظر: قصص الأنبياء ومعها سيرة الرسول ﷺ، للإمام الشعراوي: ٣٨٣.

رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ [١٠١]، وضح - سبحانه وتعالى- أنه لما أرسل إليهم نبيه محمدا ﷺ، لم يؤمنوا به، وإنما نبذوا كتاب الله - القرآن ومن قبله التوراة - وراء ظهورهم، ثم بيَّن في الآية - موضع الدراسة – أنهم بدل أن يتبعوا تعاليم الله، فضلوا اتباع الأباطيل والترهات التي جمعها الشياطين، وهذا شأن كل من ترك الحق، لا بد له من اتباع الباطل. ولكنهم لم يكتفوا بذلك فقط، وإنما ادعوا كذبا أن هذه الأباطيل والترهات هي التي كان نبي الله سليمان عليه السلام يحكم بها الجن والإنس، وأرادوا بذلك نفي كون سليمان نبيا مَلِكًا رسولا، وإثبات أنه كان ساحرا كافرا – حاشاه - ، وعليه أتت الآية لتظهر كذبهم وافتراءهم، وتنفي عن سيدنا سليمان هذه التهمة الشنيعة. كما بيَّنت الآية حقيقة السحر، وحكمه، وفضحت ما قام به اليهود من حيل وخدع وخزعبلات أعمت الناس عن معرفة الحق وقبوله، وأثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن إيقاع النفع أو الضرر إنما هو بيد الله تعالى.

تبدأ الآية بحرف العطف (و) للدلالة على ارتباط هذه الآية بما قبلها. واختلف المفسرون في المقصودين بالاتباع في الآية؛ فقيل إنهم اليهود الذين كانوا موجودين في المدينة على عهد النبي ﷺ الذين رفضوا اتباع الحق الذي أتاهم في القرآن الكريم، وقيل إنهم اليهود على عهد سليمان عليه السلام الذين تعلموا السحر وعملوا به على عهد سليمان [١]، "لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه السلام ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا، فالذين كانوا منهم في زمانه لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وَجَدَ هذا الملك العظيم بسبب السحر"[٢]، وقيل إنه "يتناول

١) لتفصيل ذلك ينظر: تفسير الطبري جامع البيان:٢/ ٣١٣ - ٣١٦.

٢) تفسير الرازي مفاتيح الغيب: ٣/ ٦١٧.

الكل وهذا أولى لأنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى غيره، إذ لا دليل على التخصيص"[١]، ولعل كون سورة البقرة مدنية يؤكد دخول يهود المدينة في هذا المعنى.

وفي قوله تعالى (وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ)، إثبات لاتباعهم الشياطين، ونفي ضمني لاتباعهم تعاليم الله تعالى وتوجيهات نبيهم سليمان عليه السلام. واستخدم الفعل الماضي (وَٱتَّبَعُواْ) الذي يدل على الحدث في الماضي، للدلالة على أن اتباعهم الشيطان قديم متأصل فيهم. ثم أتى الفعل المضارع (تَتۡلُواْ) للدلالة على أن تلاوة تلك الخزعبلات هي دأب الشياطين دائما، فهو أمر متجدد مستمر يفعلونه لإغواء البشر في كل عصر، وكأن فيه أيضا تنبيه ليهود المدينة وقت نزول الآية ولمن أتى بعدهم إلى قيام الساعة حتى لا يفعلوا كما فعل أسلافهم من اتباع الشياطين، يقول الإمام البقاعي:" وعبر بالمضارع إشارة إلى كثرته وفشوه واستمراره"[٢].

والتلاوة مصدر تلا يتلو إذا اتَّبعَ، ومنه تلاوة القرآن لأنه يُتبِع آية بعد آية، ففيه معنى القراءة ومعنى الاتباع، وهو فعل يتعدى بنفسه، لكن تعديته بحرف الاستعلاء (على) تدل على تضمنه معنى الكذب يقول الراغب:" ويقال: فلان يَتْلُو على فلان ويقول عليه، أي: يكذب عليه»"[٣]. فأراد –سبحانه وتعالى – إظهار كذبهم فيما نسبوه إلى سليمان عليه السلام من السحر. واختص سيدنا سليمان بالذكر في الآية دون غيره من الأنبياء مع أن السحر كان موجودا قبل ذلك؛ لأن الله تعالى أراد تبرئة سليمان مما نسبوه إليه، لأنهم أرادوا أن ينفوا عنه النبوة، وأن يثبتوا له الملك فقط، فلا تكون له منزلة في نفوس الناس.

---

١) السابق نفسه.

٢) نظم الدرر:٢/ ٧٢، ٧٣. واختار هذا الرأي ورجحه الطاهر ابن عاشور، في التحرير والتنوير: ١/ ٦٢٩.

٣) المفردات في غريب القرآن: ١٦٨. وهذا ما ذكره الطاهر ابن عاشور، في التحرير والتنوير: ١/ ٦٢٩.

كما يفيد التعبير بـ (على) الاستعلاء والفوقية، وكأن السحر في تلك الأيام كان ظاهرا عاليا [١]، ولعل المراد بذلك أن كذبهم وافتراءهم على سليمان كان له صدى مسموعا بين الناس فصدقوه، للدرجة التي جعلتهم يصدقون أن سليمان كان كافرا، ويؤكد ذلك إغفال السياق لتفاصيل اتهامهم لسليمان بالكفر، والتركيز على نفي ذلك عنه وإثبات الكفر لهم وتبيين سببه. وفي قوله تعالى: (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ)، قُدِّم نفي كفر سليمان على إثبات كفر الشياطين؛ لأن هذا هو مقصود الآية في الأصل، و" لأنه الأهم تعجيلا بإثبات نزاهته وعصمته ولأن اعتقاد كفره كان سبب ضلالٍ للذين اتبعوا ما كتبته الشياطين"[٢].

وجاء الفعل المضارع (يُعَلِّمُونَ) مناسبا للفعل (تتلوا) فكلاهما على بناء المضارع، لحكاية حالهم، ولبيان سبب كفرهم، وللدلالة على كثرة ذلك فيهم وتجدده في كل زمن.

وعلى الجانب الآخر أتى نفي الكفر عن سليمان وإثباته لهم على بناء الفعل الماضي؛ لأنه حكم خاص بهم في ذلك الوقت. ولا شك أن هذا الأسلوب القرآني فيه ما فيه من التحذير من مغبة العمل بالسحر واتباع الشياطين المتربصين بالناس في كل وقت، يسعون لتعليمهم السحر، ليدخلوا معهم في زمرة الكافرين – أسأل الله العافية –.

ويلاحظ أن لفظ (السِّحر) أتى معرفا بـ (ال) ليدل على جنس السحر الذي كان معروفا قبل زمن سليمان عليه السلام. وفيه دلالة على التفريق بين هذا الضرب من السحر وبين الضرب الآخر الذي أُنزل على الملكين (هاروت وماروت)، يقول الحرالي:" فيه إنباء بأن هذا التخييل ضربان: مودع في الكون، هو أمر الشياطين، ومنزل من غيب، هو المتعلم من

١) ينظر: نظم الدرر:٢/ ٧٣.

٢) التحرير والتنوير: ١/ ٦٣٠.

الملكين"[١]، واستُغْنِي بذكره مرة في قوله (يعلمون الناس السحر) عن إعادته مرة أخرى عند الحديث عن الملكين، لكن جاء السياق مفسرا لنوعِ ما أنزل على الملكين في قوله بعد ذلك: (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ).

والمتأمل في قوله (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ)، يُلاحظ عدة أمور، **الأول**: أن الفعل المضارع (يُعَلِّمان) حكاية حال لهذين الملكين وقت الكلام، ويدل على شمول التعليم والقول لكل من طلب تَعَلُّم السِّحر، يقول ابن عاشور:" (ما) نافية والتعبير بالمضارع لحكاية الحال إشارة إلى قولهما لمتعلمي السِّحر إنما نحن فتنة قول مقارن لوقت التعلم لا متأخر عنه"[٢]. **الثاني**: أن (حتى) تدل إما على معنى (إلى أن) أو على معنى (إلا)، وفي ظني أن دلالتها على الاستثناء أقوى؛ ففي الكلام أسلوب حصر بالنفي والاستثناء (ما... حتى)، وهذا يدل على أن الملكان لم يعلما أحدا السِّحر إلا بعد تحذيره من فتنته[٣].

الثالث: أن زيادة (من) في قوله (مِنْ أَحَدٍ) لتأكيد الاستغراق وشمول التحذير لكل من أرادالتعلم.

الرابع: الحصر بـ (إنَّما) في قوله (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) يعطي دلالة على التحذير الشديد من تعلم السحّر، حيث لا يوجد احتمال لعدم كونه فتنة. **الخامس**: أن المخبر عنه هنا مثنى

---

١) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي (ت ٦٣٨هـ): ٢٤٣. هو العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبيّ الأندلسي، مفسر من علماء المغرب ولد بمراكش وأخذ النحو عن ابن خروف، ولقي العلماء، من كتبه " مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" وغيره، مات سنة سبع وثلاثين وست مائة أو ثمان وثلاثين. يُنظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/ ٣٠٩.

٢) التحرير والتنوير: ١/ ٦٤٣.

٣) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري: ١/ ٦٤٣.

(نحن) والخبر واحد (فتنة) وهي مصدر للفعل (فتن)، يقول البقاعي:" ووحد والمخبر عنه اثنان لأنها مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع "[١]. وأضاف الطاهر ابن عاشور:" والإخبار عن أنفسهم بأنهم فتنة إخبار بالمصدر للمبالغة، وقد أُكِّدَت المبالغة بالحصر الإضافي، والمقصد من ذلك أنهما كانا يصرحان أن ليس في علمهما شيء من الخير الإلاهي وأنه فتنة محضة ... "[٢]. **السادس**: قوله (فلا تكفر) فيه تصريح بأن تعلم السحر يفضي إلى الكفر، حيث دخلت (لا) الناهية على الفعل المضارع الذي يكون في جزمه قطع للكلام، وشدة في التحذير، وإظهار أن تعلم السحر يغري بالعمل به مما يصل بصاحبه إلى الكفر، كما أن أسلوب النهي توجه الخطاب فيه إلى الشخص بعينه، وهذا يضيف مزيد تحذير واستنكار لرغبة الشخص في تعلم السحر مع علمه بكونه فتنة.

وفي قوله تعالى: (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ)، يلاحظ أن الفعلين (يتعلمون، يفرقون) أسندا إلى الأشخاص الذين يريدون التعلم، فهم الذين يسعون إلى التعلم، وهم الذين يفرقون بين المرء وزوجه، ولم يسند ذلك إلى الملكين (هاروت وماروت) للتأكيد على كراهيتهما تعليم السحر، وعلى أن التفريق إنما يقع بيد المتعلمين [٣].

وخص السياق (مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ) بالذكر، لأنه من أهم مهمات الشيطان، وقد بيَّنت السنة الصحيحة حرصه على التفريق بين الأحبة، ولا سيما الأزواج، فعن جابر –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء. ثم يبعث سراياه. فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجئ أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا. فيقول: ما صنعت شيئا. قال ثم يجئ أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته.

---

١) نظم الدرر: ٢/ ٧٨.

٢) التحرير والتنوير: ١/ ٦٤٣.

٣) ينظر: التفسير البسيط: ٣/ ١٩٩، ٢٠٠.

قال فيدنيه منه ويقول: نعم أنت» [١]. كما أن كون السياق القرآني قد نص على أشنع أنواع السحر، فهذا يفهم منه أنهم يتعلمون ما دون ذلك، وبالتالي شملت الآية سحر التفريق صراحة، وغيره ضمنا.

ثم يعالج السياق القرآني مسألة مهمة، وهي أن إيقاع الضرر أو دفعه إنما هو بيد الله تعالى، لا بيد الساحر ولا بيد شيطانه، فقال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ يقول البقاعي:" ولما ذكر السبب القريب للضرر رده إليه ترقية للذهن الثاقب إلى أعلى المراتب وصونًا له عن اعتقاده ما لا يناسب "[٢]، ويلاحظ أنه تم تأكيد هذا المعنى في السياق بعدة مؤكدات، هي: **أولا**: استعمال أسلوب النفي والاستثناء (ما... إلا). **ثانيا**: تقديم (هم) للتحقير من شأنهم وإثبات أنهم لا قيمة لهم ولا لعملهم فكيف يوقعون ضررا بأحد. **ثالثا**: زيادة الباء في (بضارين، به) فقد زيدت في الخبر، للتأكيد [٣]. **رابعا**: زيادة (من) التي تدل على استغراق الجنس وتؤكد المعنى المقصود، يقول الواحدي:" وقوله تعالى: {مِنْ أَحَدٍ} أي: أحدًا، ومِنْ زائدة مؤكدة، كقولك: ما جاءني من أحدٍ"[٤].

ويلاحظ أن السياق اشتمل على ذكر الضرر فقط، وأكد على أن وقوعه إنما هو بيد الله، ولم يرد ذكر إيقاع النفع، لأن السحر لا يقع به نفع أبدا، ويؤكد هذا المعنى التصريح به في قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾ [٥].

---

١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا، ج٤، ص ٢١٦٧، حديث رقم: ٢٨١٣.

٢) نظم الدرر: ٢/ ٧٩.

٣) ينظر: مغني اللبيب: ١٤٤، ١٤٩.

٤) التفسير البسيط: ٣/ ٢٠١.

٥) ولمزيد من التفصيل في هذه الدلالة، ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٦٤٥.

ويلاحظ تكرار الفعل (يتعلمون) في قوله (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا) و(وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ)، "لأجل ما وقع من الفصل بالجملة المعترضة"(١)، وأرى أن في هذا التكرار زيادة في التشنيع بفعلهم، فهم مع معرفتهم بأن تعلم السِّحر فتنة، وأنه يفضي إلى الكفر، وأن الساحر لا يمكنه إيقاع الضرر بالغير إلا بإذن الله، وأنه لا يقع منه نفع أبدا، مع معرفتهم بكل ذلك إلا إنهم مصرين على تعلُّمه. وفيه أيضا زيادة في التحذير من ضرره.

وينتقل السياق بعد الحديث عن ضرر السِّحر على الساحر في الدنيا، إلى الحديث عن الضرر في الآخرة، ويبدأ بالقسم (وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ)، يقول الزجاج:" ودخول اللام في لقد على جهة القسم والتوكيد"(٢)، لكن القسم هنا محذوف لدلالة الجواب عليه دلالة التزامية (٣)، و(قد) تفيد تحقق الوقوع حيث وقع بعدها الفعل الماضي (عَلِمُواْ) (٤). والجملة معطوفة على أول الآية (وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ)، وفيها ذم وتوبيخ شديد لهم؛ حيث اتبعوا ذلك كله بالرغم من علمهم أن من اشتراه ليس له نصيب في الآخرة.

ومن المعلوم أن الشراء والبيع يتلازمان، فالمشتري دافع الثمن، وآخذ المثمن، والبائع دافع المثمن، وآخذ الثمن (٥). ولما عبر السياق القرآني هنا بلفظ (ٱشْتَرَىٰهُ)، دل هذا على أنهم أخذوا شيئا ودفعوا شيئا، وفُسِّر هذا بقوله (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ)، فهم باعوا أنفسهم وإيمانهم في مقابل تعلم السِّحر.

---

١) السابق: ١/ ٦٤٦. وهو يعني بالجملة المعترضة قوله تعالى:(وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِن أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ).

٢) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ١٨٦.

٣) التحرير والتنوير: ١/ ٦٤٦.

٤) رصف المباني في شرح حروف المعاني: ٣٩٢.

٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٤٥٣، التحرير والتنوير: ١/ ٦٤٦.

وقوله تعالى (مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ)، أتى لفظ (خَلَٰقٖۚ) نكرة منفية بـ (ما)، فأفاد شمول النفي لكل حظ أو خير في الآخرة فلا ينالون منه شيئا، وتأكد ذلك بزيادة (من) التي تفيد الاستغراق، مهذا يدل على أن تعاطي السحر جُرم وكفر(١).

ولمزيد من التقريع واللوم تأتي خاتمة الآية (لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ) لنفي العلم عنهم. وظاهر هذا يوهم التعارض بينها وبين قوله تعالى قبل ذلك: (وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ) ففيه إثبات العلم لهم، وقد دفع الإمام الزمخشري هذا التعارض فقال:" معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه"(٢)، وأضاف الإمام البقاعي أن في هذا:" إشارة إلى أن هذا لا يقدم عليه من له أدنى علم، فعلمهم الذي أوجب لهم الجرأة على هذا عدم بل العدم خير منه"(٣).

وبعد كل هذا التشنيع للسِّحر تعلما وعملا، تأتي الآية التالية لتعطيهم بديلا يمنحهم الخير في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣﴾ [سُورَة الْبَقَرَة: ١٠٣].

١) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٦٤٦.
٢) تفسير الكشاف: ١/ ١٧٣.
٣) نظم الدرر: ٢/ ٨٢.

المبحث السادس

سياق وصف النبي عيسى عليه السلام بالسحر

نبي الله عيسى عليه السلام، هو آخر أنبياء بني إسرائيل، ورد اسمه في القرآن خمسًا وعشرين مرة[١]. وتحدث عنه القرآن في مواضع عديدة، مُبرزا مكانته كأحد أولي العزم من الرسل. وقدَّم سردًا شاملًا لحياته منذ البشارة بميلاده المعجز من دون أب، ثم تكلمه في المهد، إلى دعوته لبني إسرائيل لعبادة الله وحده. وأكد القرآن على نبوته ورسالته، مُبينًا معجزاته الباهرة التي أيده الله بها، مثل إحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن الله، يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٠]، وبالرغم من هذا كله لم يجد الكافرون من بني إسرائيل، سوى السحر، حيلة ينكرون بها معجزاته والخوارق العظيمة التي كان يجريها الله على يديه.

وصف الكافرون سيدنا عيسى بالسحر في موضعين، الأول هو الآية المذكورة من سورة المائدة، والآخر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى

١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٩٤، ٤٩٥.

ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ ﴾ [الصف: ٦-٧]

أمَّا آية المائدة، فوردت في سياق مشهد تصويري من مشاهد يوم القيامة، بعد قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ١٠٩﴾، حيث يجمع الله بين الرسل وأقوامهم على مشهد من الملأ الأعلى ومن الناس أجمعين، فيواجه المكذبين برسلهم الذين كان يكذبونهم. وهنا يعلن الرسل – تأدبا في حضرة رب العالمين – أن العلم لله وحده فهو سبحانه علام الغيوب. وفي المناسبة بين هذه الآية والآية موضع الدراسة، ذكر الرازي أن في الآية الأولى توبيخ للأمم التي تمردت، وللنصارى – خاصة- لأنهم لم يكن طعنهم مقصورا على عيسى وإنما تعداه إلى الطعن في جلال الله وكبريائه؛ حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به، فجعلوا له ولدا وزوجة، ففي الآية تقريع لهم على سوء مقالتهم [1].

ويلاحظ أن السياق القرآني عبر بالماضي (قال) عن حدث لم يحدث بعد، وهذا أمر شائع في القرآن الكريم، والغرض منه التأكيد على تحتم وقوع ذلك أو قُرب وقوعه، وقد أشار البقاعي إلى أن استخدام الفعل الماضي كان:" تذكيرًا بما لذلك اليوم من تحتم الوقوع، وتصويرًا لعظيم تحققه، وتنبيهًا على أنه لقوة قربه كأنه قد وقع ومضى"[2]، ثم أخذ في تعداد نعم الله تعالى على عيسى عليه السلام، ومنها المعجزات التي أيده بها. ويلاحظ أيضا تنوع الأفعال الواردة في هذه الآية، فأتى فيها فعل الأمر (اذكر)، واستعمل هنا لأن الموقف موقف

١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢/ ٤٥٨، نظم الدرر: ٣٣٨/٦.
٢) السابق: ٣٣٨/٦، ٣٣٩.

شهادة، وأمر الله له بالذكر ليس لأنه ناسٍ، وإنما لاستحضار الأمر في الذهن، وهذا ما يفعله كثير من الناس إذا طلب شهادة أحدهم يبدأ بتذكيره بالأمور الحسنة التي فعلها له أو أعانه فيها، ليس من باب المنة وإنما للتذكرة(١).

ووردت الأفعال الماضية (أيَّدتُك، عَلَّمتك، كففت، جئتهم، قال)، فأتت تعبيرا عن الأحداث التي حدثت قبل ولادة عيسى أو في حياته، وبعض هذه الأحداث ثابتة مستمرة مع عيسى وهي (أيدتك، علَّمتك) وذلك لمعرفتنا أن الله تعالى رفع عيسى إلى السماء، وأنه سينزل إلى الأرض في نهاية الزمان، فتأييد الله له بالروح القدس وتعليمه الكتاب والحكمة ثابت مستمر معه قبل رفعه وبعد نزوله، وأما بقية الأحداث (كففت، جئتهم، قال)، فقد وقعت وانتهت؛ لارتباطها بفترة دعوته لبني إسرائيل.

وأما الأفعال المضارعة، فورد منها (تكلم، تخلق، تنفخ، تكون، تبرئ، تخرج)، وهي تدل على التجدد والحدوث، وذلك أن هذه المعجزات أجراها الله على يدي عيسى عليه السلام في فترة حياته قبل رفعه، ولعل مجيئها على بناء المضارع يدل على أن الله سيجريها على يديه مرة أخرى بعد نزوله إلى الأرض، وربما كان ذلك لحكاية الحال واستحضار الصورة.

وأثناء تعداد هذه المعجزات تكرر ورود لفظ (بإذني) وفيه يؤكد الله تعالى على أن كل هذه المعجزات هي من عنده وبأمره، وفي هذا زيادة في تبكيت وتوبيخ هؤلاء الكافرين، الذين ادعوا الألوهية لعيسى عليه السلام ، ورموه بالسحر، فكل ما وقع إنما وقع بإذن الإله الحق القادر على كل شيء (٢).

وزيادة (مِنْهُمْ) في قوله تعالى (فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ)، تدل على أمرين، أولهما: التأكيد على إيمان عدد منهم – وهم الحواريون — بالله، وثانيهما: أن زيادة من التي للتبعيض

١) ينظر: التحرير والتنوير: ٧/ ١٠١.

٢) أكد الرازي هذا المعنى، ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢/ ٤٦٠.

وعود الضمير المتصل بها على الذين كفروا يدل على التقليل من شأن الكافرين، فكأنهم هم القلة وكأن الحواريين بإيمانهم هم الكثرة.

وفي قوله (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) استخدم أسلوب النفي والاستثناء (إن.. إلا)، للدلالة على تأكيد ما يفترون به على عيسى والمعجزات التي أيده الله بها. وقرئ (سحر) على بناء المصدر، و(ساحر) على بناء اسم الفاعل[١]، أما على القراءة الأولى، فقوله تعالى (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) " يُبِين عمَّا أتى به لمن رآه ونظر إليه أنه سحر لا حقيقة له"[٢]، وعلى القراءة الثانية، فإنها تكون وصفا لعيسى عليه السلام، ويراد بها أنه ساحر لا نبي. وذكر الطبري أن القراءتين معروفتان صحيحتا المعنى، وأن القارئ إذا قرأ بأي منهما فهو مصيب [٣]، واختار الواحدي القراءة بالمصدر (سحر)، لجواز وقوعه على الحدث والشخص[٤].

والموضع الآخر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، بإمعان النظر يلاحظ أن توقيت هذا السياق يختلف عن توقيت سابقه؛ لوجود عدة دلائل سياقية تشير إلى أن الحديث هنا عن بداية دعوة عيسى عليه السلام لقومه،**أولا**: أن عيسى عليه السلام قال يا بني إسرائيل ولم يقل يا قوم، يقول ابن عاشور:" فأما عيسى فإنما كان مرسلا

١) ينظر: السبعة في القراءات: ٢٤٩، الحجة للقراء السبعة: ٣/ ٢٧٠، ٢٧١.
٢) جامع البيان: ٩/ ١١٥.
٣) ينظر: جامع البيان: ٩/ ١١٦.
٤) ينظر: التفسير البسيط: ٧/ ٥٨٩.

بتأييد شريعة موسى، والتذكير بها وتغيير بعض أحكامها، ولأن عيسى حين خاطبهم لم يكونوا قد اتبعوه ولا صدقوه فلم يكونوا قوما له خالصين "[١].

ثانيا: أن الله أخبر عنهم بالفعل الماضي (قالوا) من دون تحديد للقائلين من دون وصفهم بالكفر أو الإيمان، كما لم يتأكد قولهم بالنفي والاستثناء كما في الموضع الآخر.

ثالثا: السياق يشير إلى الخطوات التي سار عليها عيسى عليه السلام في دعوتهم، فقد أعلن لهم أنه رسول الله إليهم، وأنه أتى مصدقا لما أتى به موسى من قبله، ومبشرا بخاتم النبيين ﷺ، وذكر التوراة ولم يذكر الإنجيل.

وبالتالي يظهر أن السياق في آية المائدة سياق توبيخ وتعديد للنعم على بني إسرائيل الذين قابلوا كل ذلك بالكفر والطغيان والعدوان على أنبياء الله، أما في آية الصف فالمقام مقام تبليغ بالدعوة ثم عصيان مبدئي أعقبته أحداث أخرى بالتأكيد.

المبحث السابع

سياق وصف سيدنا محمد ﷺ بالسحر

النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، أرسله الله تعالى في آخر الزمان فجعل رسالته هي خاتمة الرسالات، وجعل الكتاب الموحى إليه هو خاتم الكتب، وارتضاه ليكون هو الدستور الذي يحكم الأرض إلى قيام الساعة.

تكرر ذكر اسم سيدنا المصطفى ﷺ في القرآن الكريم بلفظ (محمد) أربع مرات، وبلفظ (أحمد) مرة واحدة، كما ذكر ﷺ ضمنيا مرات كثيرة بألفاظ أخرى مثل: الرسول والنبي والأمي، كما توجد سورة كاملة باسم سورة محمد. وللنبي ﷺ منزلة عظيمة في القرآن الكريم، ويكفي أن الله – تبارك وتعالى – نادى جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال: يا آدم، يا نوح، يا

(١) التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٨٠.

إبراهيم، يا موسى، يا عيسى.....، بينما نادى النبي ﷺ بقوله له: يا أيها النبي، يا أيها الرسول، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر.

وإذا كان الكافرون في عهد من سبق ذكرهم من الأنبياء – عليهم السلام – في المباحث السابقة، زعموا أن معجزات هؤلاء الأنبياء الأكارم سحرٌ؛ فقد يكون لهم وجه في ذلك؛ لأنها كانت معجزات حسِّيَّة، تقلب الحقائق، والسِّحر يخيل للعيون ما يشبه ذلك؛ ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (١)، يقول النووي:" معناه أن الذي أُوتِيتُهُ لا يتطرق إليه تخييلٌ بسحرٍ وشُبهة بخلاف معجزة غيري؛ فإنه قد يُخيِّل الساحرُ بشيء مما يقارب صورتها، كما خَيَّلتِ السَّحرة في صورة عصا موسى ﷺ والخيال قد يَرُوج على بعض العوام، والفرق بين المعجزة والسِّحر والتخييل يحتاج إلى فكرٍ ونظرٍ، وقد يخطئ الناظر فيعتقدهما سواءً "(٢).

وكما هو معروف، فإن الله تعالى قد تحدَّى مشركي مكة في غير موضع في القرآن الكريم أن يأتوا بمثلة أو بعشر سور من مثله أو حتى بسورة، لكنهم عجزوا عن ذلك. ولما لم يجدوا حيلة للقدح في شخص النبي ﷺ أو فيما أتى به من عند الله تعالى، لجأوا إلى رميه بالسحر، الذي هو تهمة من لا تهمة له.

ووردت خمسة مشتقات لـ (س ح ر) في ستة عشر موضعا متعلقة بوصف النبي ﷺ بالسحر، فجاء اسم الفاعل في موضعين، واسم المفعول في موضعين، وجمعه (مسحورون)

١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، وأول ما نزل، ج٤، ص ١٩٠٥، حديث رقم: ٤٦٩٦.

٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: ٢/ ١٨٨.

في موضع واحد، والفعل المضارع المبني للمجهول (تُسحَرون) في موضع واحد، وتكرر بناء المصدر في عشرة مواضع، وبيان هذه المواضع كالتالي:

الموضع الأول: ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٧].

نقل الواحدي في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت حين قال مشركو مكة: يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله [١].

وهذا ما أشارت إليه الآية حين بدأت بأداة الشرط (وَلَوْ نَزَّلْنَا) وجوابها (لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) فالشرط وجوابه مشعران بأن هذا أمر متكرر ونتيجته معروفة دائما.

وأكد السياق القرآني هذا المعنى بعدد من المؤكدات، **أولها:** قوله (قِرْطَاسٍ) فهي كلمة معربة [٢]، تعني الصحيفة التي يكتب عليها، ولعل السياق القرآني فضل استخدام كلمة معربة لإبهار هؤلاء الناس سواء في ذلك زعماء مكة أو من دونهم ممن يرجى دخوله الإسلام. **وثانيها:** قوله (فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) ، ففيه زيادة تأكيد على طغيانهم فبالرغم من وجود الآيات البينات وثقتهم الكاملة في أنها من عند خالق هذا الكون، ثقة مبنية على المعاينة الشخصية، إلا أنهم يتكبرون عن الإقرار بالحق فينكرونه ويرمونه بالسحر، فاللمس باليد أبلغ في الإحساس بالشيء من المعاينة، فاللمس باليد يتضمن المعاينة وزيادة [٣]، وعلل لذلك الزمخشري، فقال:" ولم يقتصر بهم على الرؤية، لئلا يقولوا سكرت

١) ينظر: أسباب النزول:٢١٤.
٢) ينظر: المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، للجواليقي :١٣٤
٣) ينظر: التفسير البسيط: ٨/ ٢٣.

أبصارنا، ولا تبقى لهم علة. لقالوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتا وعنادًا..."[1]، كما أنه من المعروف أن اللمس إنما يكون باليد، لكن أضيفت كلمة (بِأَيْدِيهِمْ) زيادة في التحقق والتصوير. **وثالثها**: في قوله (لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) حيث تقرر الآية بقاءهم على كفرهم وطغيانهم مهما أتتهم آيات، ويخرج من هذا بالطبع من لم يسر على نهجهم، يقول أبو حيان:" وجاء لقال الذين كفروا لأن مثل هذا الغرض يقتضي انقسام الناس إلى مؤمن وكافر، فالمؤمن يراه من أعظم المعجزات والكافر يجعله من باب السحر"[2]، كما أن اتصال الفعل الماضي بلام القسم يزيد ذلك تأكيدا. **رابعها**: في قوله (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) ففيها تعبير مشهور عند كل المعاندين بالطريقة وأدوات التأكيد نفسها؛ التي هي: (إن، وإلا) واسم الإشارة هذا، واستخدام بناء المصدر (سحر)، ووصفة بكلمة (مبين).

الموضع الثاني:قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ [يونس:١-٢]

هذه بداية سورة يونس، التي بدأت بإعجاز هو الحروف المقطعة (الر)، التي تتألف منها ومن أمثالها آيات الكتاب الحكيم، الذي ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في كل شيء.

نقل الواحدي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قوله:" لما بعث الله تعالى محمدا ﷺ رسولا أنكرت عليه الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد، فأنزل

١) الكشاف: ٢/ ٦.

٢) البحر المحيط: ٤/٤٤١.

الله تعالى هذه الآية"[١]، وقولهم هذا لم يكن جديدا، وإنما هو جديد قديم، جديد بالنسبة لأهل مكة لكنه قديم قوبل به كل رسول.

بدأت الآية بالاستفهام الاستنكاري لتوبيخ [٢] أهل مكة على قولهم هذا، فمحمد ﷺ كان قد تربى فيهم ويعرفون أخلاقه وأمانته، كما أن أخبار الأمم السابقة كانت قد وصلتهم، فكيف يسألون مثل هذا السؤال، وهنا تبرز لام الجر في قوله (**لِلنَّاسِ**)، بدلا من (عند)، مع أنها تفيد ظاهريا نفس دلالة (اللام). وتوضيح ذلك أن اللام هنا تفيد الاختصاص أو الملكية المجازية، فالعجب كأنه مخصوص أو موصول بالناس، فكأن له صلة خاصة بهم أو أنهم معنيون به بشكل مباشر، كما يقال (الحصير للمسجد)، كما أنها تفيد التركيز على الارتباط بين الناس والعجب كحالة، مما يجعل المسألة عقلية أكثر منها زمانية أو مكانية. أما عند فتفيد الظرفية المكانية أو الزمانية مجازا، وتدل على أن العجب في تقدير الناس أو عندهم كأفراد أو جماعات، وكأنه يحدث نتيجة لشيء مشاهد أو محسوس لديهم يستدعي العجب وينتهي بانتهائه، كما يقال (الحصير عند المسجد) [٣]. وبهذا يكون اختيار اللام دون غيرها مفسرا للحالة العقلية التي دفعتهم إلى اتهام النبي ﷺ بأنه ساحر.

كانت حالة العجب الدائمة التي يحيا فيها المشركين، بسبب اختيار الله لمحمد ﷺ رسولا، أتاهم بوحي الله نذيرا وبشيرا (أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)، فتفرق أهل البيت الواحد بين مؤمن وكافر، ولما حدث ذلك داخل بيوتهم ومع أهلهم وأبنائهم وجد الكافرون الحجة التي رأوها مناسبة للطعن في سيد الخلق، وهي أن يشيعوا في مكة وخارجها (إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ)، لأنه فرق بين الرجل وأهله وولده، مما يبعث الخوف في نفوس من

---

١) أسباب النزول: ٢٦٤.

٢) ينظر: التفسير البسيط: ١١/ ١١٧.

٣) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٢٧، وفي دلالة (اللام) و (عند) ينظر: مغني اللبيب: ٢٠٩، ٢٧٥.

لم تبلغهم دعوة الإسلام، فينصرفوا عن معرفتها أو السماع عنها [1]. وهم بادعائهم هذا معترفون بالعجز عنه، وكاذبون كذبا بينا، لأن النبيﷺ لم يفارقهم أبدا، ولم يخالط عالما ولا ساحرا، كما أن مكة كلها لم يعرف عنها اهتمام بعلم ولا بسحر.

الثالث: في قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[هود:٧]

سورة هود من بدايتها تتناول موضوع العقيدة والإيمان بالله تعالى ودلائل ربوبيته وأنه خالق هذا الكون المستحق للعبادة، وسياق الآية – موضع الدراسة – يدل على ذلك، وفيها يدلل الله تعالى على أنه هو القادر على إحياء الخلق بعد موتهم، لأنه هو من خلقهم أول مرة وخلق كل شيء، فكيف يعجز عن إحياء ما خلق؟

ويشير السياق القُرآني إلى أن أهل مكة حين أخبرهم النبي ﷺ بأمر البعث بعد الموت، انقسموا إلى فريقين: فريق اختار طريق الكفر من البداية بغض النظر عن الدلائل وعن كونها حقائق مقبولة عقلا، ولم يجد له حجة إلا اتهام النبي بالسحر، واستخدم أدوات تأكيد من اللغة التي هم بارعون في استخدامها للتأكيد على صدق هذا الادعاء. والفريق الآخر اختار إعمال عقله والتصديق بالنبي وبكل ما أتى به من عند الله عز وجل.

ويلاحظ في الآية الكريمة أن دلالة السحر جاءت مخصوصة بقول النبي ﷺ لهم أنهم سيبعثون بعد الموت، وهي دلالة معنوية على أمر غيبي ليس له أي وجود مادي محسوس أو مشاهد يستوجب وصفه بالسحر، فكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر؟ وللإجابة على هذا أقول: إن استخدام كفار قريش للفظ (سحر) في السياق لم يكن استخداما له على وجه

---

١) ينظر: البحر المحيط: ٦/ ١١.

الحقيقة، فليس هناك ما يدلل على وجود السحر بمعناه المعروف، لكنهم ادعوا هذا الادعاء على سبيل الخديعة، فاستخدموا لفظا له ايحاءات ودلالات معينة عند الناس، ليقع من نفوسهم الموقع الذي يريدون؛ ليقع الناس تحت طاعتهم وينقادوا لهم [١].

والسحر في كل وقت ومكان ما هو إلا صراع بين العقل وبين العناد الذي يكون بعيدا كل البعد عن إعمال العقل، ولأن كفار مكة ومن سبقهم أو لحق بهم، ممن توافقت عقولهم وقلوبهم وأهواؤهم، معروفة توجهاتهم وردود أفعالهم. وأخبر الله نبيه عنهم بقوله: (وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) وأكد هذه النتيجة بالشرط والقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، وبالتعبير عنهم بأنهم (ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) بإثبات الكفر لهم قبل أن ينطقوا كلمة الكفر بألسنتهم.

الموضع الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٠-١٥]

سياق هذه الآية يشبه – إلى حد ما – سياق الآية الكريمة في الموضع الأول، ففيه يبين الله تعالى أن أولئك القوم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية.

في الآيات الكريمات، يدلل الله تعالى على عناد مشركي مكة وكفرهم، وأنهم مقيمون على عنادهم ولو فتح الله عليهم بابا من السماء فرأوا عُروج الملائكة أو عروجهم هم فيه. وأنهم

١) أشار الإمام الرازي إلى ذلك عند تفسيره لهذه الآية، ينظر: مفاتيح الغيب: ١٧/ ٣٢٠.

يعللون ما رأوه بقولهم (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)، فتعليلهم الأول (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا) فيه عدة أمور، **الأول**: استعمال (إنما) التي تفيد الحصر والتأكيد، يقول أبو حيَّان:" وجاء لفظ إنما مشعرا بالحصر، كأنه قال: ليس ذلك إلا تسكيرا للأبصار"(١)، **الثاني**: مجيء الفعل (سُكِّرت) بالبناء للمجهول، لإرادة الدلالة على أنهم ليس له يد فيما حدث لأبصارهم، فكأنما حدث ذلك لمؤثر خارجي.

وبعد هذا الحصر أضرب المشركون عن ذلك وقالوا (بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)، وفي إضرابهم عن رأيهم الأول الذي بدأوه بأسلوب الحصر دلالة على تخبطهم وضعف تفكيرهم، فلعلهم ظنوا أنهم لا يبلغون ما أرادوا – وهو صد الناس عن الإيمان – بكلامهم الأول، فأوغلوا في الادعاء بالقول بأنهم قد سُحِروا، يقول ابن عطية:" ويجيء قوله: بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ انتقالا إلى درجة عظمى من سحر العقل"(٢). ويلاحظ أنهم استخدموا بناء اسم المفعول للجمع لوصف حالتهم، فهم مفعول بهم السحر. (٣)

وإمعانا في ذم النبيﷺ وصرف الناس عنه، استخدموا كلمة (قوم) في التي تقتضي الدلالة على تمكن السحر منهم واستوائهم فيه جميعا، حتى صار من خصائص قوميَّتهم (٤).

الموضع الخامس: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا

---

١) البحر المحيط في التفسير: ٦/ ٤٧٠. وسكِّرت أي حُيرت أو حُبسَت من الإبصار، من السُّكر. يُنظر: تفسير الكشاف: ٢/ ٥٧٣.

٢)المحرر الوجيز: ٣/ ٣٥٣.

٣) وصف الطاهر ابن عاشور حالة التخبط تلك بعبارات رائعة، ينظر: التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٦.

٤) ينظر: السابق: ١٤/ ٢٧.

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الإسراء:٤٥-٤٧].

سورة الإسراء سورة مكية، تضم عدة موضوعات أغلبها عن العقيدة، والعنصر البارز فيها ومحور موضوعاتها هو شخص النبي ﷺ وموقف القوم في مكة منه ومن طبيعة رسالته.

وكان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا، وجعل على قلوبهم كالأغلفة، وعلى آذانهم كالصمم، فلا يفقهون القرآن ولا يعون ما فيه من توجيه [١]. ولهذا كانوا يستمعون إل القرآن فتتأثر به فطرتهم فيصدونها، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيمنعونها، وكانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه، ثم يعودون،

١) نقل ابن إسحاق قول الزهري:" حُدِّثْت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن الشريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكُلًا لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يسمعون له حتى إذا أصبحوا أو طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودون لو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له،حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصا ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: حدثني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وأشياء ما أعرف معناها ولا ما يراد بها، فقال الأخنس:وأنا والذي حلفت له، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت،تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا،وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه؛ فقام عنه الأخنس بن شريق".سيرة ابن إسحاق(كتاب السير والمغازي):١٨٩، ١٩٠.

وتكرر ذلك منهم كثيرا، وكانت كبرياؤهم تدفعهم عن التسليم والإذعان، فيطلقون التهم على رسول الله ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد.

وقد تناغمت عناصر السياق القرآني في الآية الكريمة للتعبير عن الحالة النفسية التي دفعت كفار قريش لهذا القول، وتمثلت هذه العناصر فيما يلي: **الأول**: بدء الآية بضمير المتكلم (نحن) لتعظيم الذات الإلاهية، ثم الإخبار عنه بصيغة المبالغة من العلم (أعلم)، ففي هذا دلالة على علم الله تعالى المحيط بكل شيء، فكفار مكة كانوا يذهبون سرا للاستماع إلى النبي ﷺ وهم في أشد حالات الحرص على ألا يعلم بذلك أحد من الناس، لكن الله تعالى فضحهم في هذا الآية، لأن الله تعالى بعلمه الواسع مطلع على أسرارهم وخبايا نفوسهم. **ثانيا**: قوله تعالى **(بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ)** فتعدية الفعل بحرف الباء دون اللام فيه مبالغة في ذمهم؛ فالباء تدل على الاستعانة وتدخل على آلة الفعل[1]، نحو: كتبتُ بالقلم، وتعدية الفعل بها تشير إلى الوسيلة المستخدمة في الاستماع وهي الآذان، لكن استماعهم غير صادق أو نابع من قلوبهم، وبالتالي فحكمهم عليه سيكون حكما ظاهريا، من غير أي تأثر داخلي أو إعمال فكر، وهذا ما يدفعهم إلى إيجاد أي تهمة يرمونه بها. **ثالثا**: تكرار الحرف (إذ)، فقد تكرر في الآية ثلاث مرات، في بداية ثلاث جمل تعبر عن ثلاثة أحداث متتابعة، هي (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) ، (وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ)، (إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ)، وفي هذا التكرار دلالة على الانتقال من مشهد إلى آخر، مع التأكيد على تفاصيل كل موقف منها، ولا شك أن في هذا التكرار توبيخ شديد لهم، فهو يعكس توالي خطاياهم وزيف مواقفهم فهم ينتقلون من الاستماع السلبي إلى النجوى الباطلة ثم يختمون بأقوال واتهامات

---

١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٣٩. وأما تعدية الفعل نفسه بـ (إلى)، التي تدل على الانتهاء، فيدل على بلوغهم غاية التركيز وتوجيه الانتباه إلى ما يُستَمَع إليه، مع احتمالية التفكر والتدبر، ثم الاقتناع بالمسموع، وهذا ما لم يرد في السياق. ولمعرفة دلالة تعدية الفعل باللام، ينظر: مغني اللبيب: ٢٩.

ظالمة. ولعل هذا التكرار الدالا على تتابع الأحداث، يشبه قوله تعالى:﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: من الآية ٤٠]. **رابعا**: في قوله (وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ)، وصفهم بالمصدر(نجوى)، وهذا يدل على انغماسهم الكامل في هذا الفعل، حتى لكأنهم صاروا متلبسين به، مما يدل على شدة اجتهادهم في تلفيق التهم لصرف الناس عن اتباع النبي ﷺ.

أما قوله: (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورٗا)، فأكدوا فيه كلامهم بأسلوب النفي والاستثناء، وهذه هي طريقتهم في أغلب السياقات ومع كل الأنبياء، لكنهم هنا أشاروا إلى الاتباع، وكأنهم كانوا يوجهون كلامهم إلى من آمن بالله وصدق نبيه ﷺ بغية ردهم إلى ما كانوا عليه من عقائد فاسدة.

ومن مشتقات (س ح ر) استُعْمِل بناء اسم المفعول، الذي يدل على من وقع عليه الفعل (مَّسۡحُورٗا)، وهذا البناء يحتمل دلالتين، تمت الإشارة إليهما أثناء الحديث عن وصف النبيين صالح وشعيب بالسحر [١]، وهما أنه يدل على المخبول الذي سُحِرَ مرة بعد مرة، فخُبِل وذهب عقله وفَسَد كلامه، أو أنه مأخوذ من (السَّحْر) وهو الرئة ويدل على أنه من البشر، لكن السياق هنا يؤيد دلالته على المعنى الأول، وذلك من وجهين، **الأول**: أنه لم يرد في السياق ما يدل على أنهم يقصدون كونه من البشر، لكنهم كانوا يتعجبون من القرآن الذي فرق بين الرجل وأهله وولده. **الثاني**: أن الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٥٠]، فهم جلسوا يتناجون للبحث عن صفة تقدح في الرسالة وفي الرسول، ولم يكن كون

١) ينظر: ص ٢٢ من هذا البحث.

الرسول بشريا داخلا في ذلك، يقول ابن عطية موضحا ذلك:" والآية التي بعد هذا تقوي أن اللفظة التي في الآية من السِّحر، بكسر السين، لأن حينئذ في قولهم ضرب مثل له، وأما على أنها من السَّحر الذي هو الرية ومن التغذي، وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر فلم يضرب له في ذلك مثل بل هي صفة حقيقة له .. ضرب المثل له هو قولهم مسحور، ساحر، مجنون، متكهن، لأنه لم يكن عندهم متيقنا بأحد هذه فإنما كانت منهم على جهة التشبيه، ثم رأى الوليد بن المغيرة(١) أن أقرب هذه الأمور على تخيل الطارين(٢)عليهم هو أنه ساحر" (٣).

الموضع السادس: في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء: ١-٣]

سورة الأنبياء من السور المكية، التي بدأت بالتنبيه والتوبيخ للغافلين من الناس، المعرضين عن اتباع الحق، الذين كلما نزل شيء من القرآن، ينشغلون عن الاستماع إليه بشؤونهم الخاصة أو بالصد عنه، فقلوبهم لاهية منشغلة عن التمعن فيه والاستجابة للحق، بصرف الناس عنه، ولذلك فهم دائما ما يتناجون في الخفاء للكيد له وللبحث عن أفكار واتهامات تصد الناس عنه.

---

١) ستأتي هذه الحادثة بتفاصيلها في الموضع السادس عشر.

٢) الطارِين، هم الغرباء الذين يأتون من مكان بعيد، والأصل فيه أن يكون مهموزا من طرأ يطرأ. ينظر: تهذيب اللغة (ط ر أ): ١٤/ ٨.

٣) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٦٠، ٤٦١.

ومن الواضح أن سياق هذه الآيات يشبه سياق الآيات في الموضع السابق، فكلاهما يتفقان في بعض الدلالات، **أولها**: أنهما تشيران إلى أن كفار قريش كانوا يستمعون للقرآن، استماعا لا يجاوز آذانهم. **وثانيها**: أنهما تشيران إلى تناجيهم في الخفاء للكيد لهذا الدين ولنبيه ﷺ، وأن هذا الكيد تمثل في اتهامهم النبي ﷺ بأنه (مسحور) في السياق السابق، وفي وصف ما أتى به بأنه (السحر) في هذا السياق. **وثالثها**: أنهما وصفتا هؤلاء بالظلم، في السياق السابق (الظَّالِمُون)، وفي هذ السياق (ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ).

ويختلف سياق الآيات هنا عن سابقه في قوته؛ فنبرة التوبيخ والإنكار على الكافرين قوية، وهي تتناسب مع البداية القوية للسورة، التي تبعث الرعب في نفوس السامعين، لكنهم مع ذلك انشغلوا باللهو واللعب عن الإنصات لما جاءهم من عند الله. ومن ثم بدأوا في التناجي والتدبير لصد الناس عن الإنصات لكلام الله؛ لأنهم يعلمون — يقينا– أن من ينصت إليه بقلبه، بعيدا عن الأهواء، فإنه حتما سيستجيب له ويؤمن بالله وبرسوله.

في قوله تعالى: (مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ)، جاء أسلوب النفي والاستثناء (ما... إلا)، للدلالة على أنه كلما نزلت آية من القرآن استمعوا إليها بآذانهم فقط وانشغلوا عنها باللعب واللهو.

ولما تجاوز السياق مرحلة الاستماع بالآذان، نص على ما يقطع الأمل من فهمهم لما سمعوه، فقال: (لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ)، فتقديم الصفة على الموصوف يدل على ثبات حالة اللهو في قلوبهم، يقول الزمخشري:" يعنى أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلا، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمّل والتبصر بقلوبهم"[١].

١) الكشاف: ٣/ ١٠٢.

ولم يكتف القوم بذلك، وإنما (وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى)، فصاروا يجتمعون سرا ويتناجون فيما بينهم؛ بحثا عن مخرج لتفسير حالة الإعراض عن الحق المتلبسة بهم. ومعلوم أن النجوى تكون في الخفاء، فلماذا تقدم الفعل (أسروا) مع دلالته على معنى التناجي في الخفاء؟

أجاب الزمخشري على هذا، فقال:" معناه: وبالغوا في إخفائها. أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون"[١]. وقوله بعد ذلك (الذين ظلموا) بدل من واو (وأسروا)، فأصل الكلام (وأسر الذين ظلموا النجوى)، لكن السياق القرآني يبالغ في توبيخهم وإنكار أفعالهم، فيؤخر وصفهم بالظلم، ليدل على اختصاصهم بهذا الوصف، وليبرز العلة في لهوهم ولعبهم وإعراضهم ثم إسرارهم وتناجيهم[٢].

وفي قوله تعالى: (هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ)، إظهار لما كانوا يتناجون به، فهو بدل مطابق من النجوى[٣]. كما أنه أسلوب استفهامي معناه التعجب، فهم يتعجبون من اختصاص النبي ﷺ بالنبوة دونهم مع كونه بشرا مثلهم، وهذا الاستفهام يقتضي أنهم خاطبوا به من قارب أن يصدق بنبوته ﷺ[٤]. ويكتمل المعنى باسم الإشارة (هذا) الذي يشعر باستهزائهم من النبي المكرَّم ﷺ واستصغارهم له؛ لأنه لم يكن ذا مال ومنزلة في مكة، على عكس منزلتهم فيها؛ فهم كانوا سادتها وقادتها، فكيف يمتاز عنهم بالرسالة؟

---

١) السابق نفسه.

٢) ينظر: الكشاف: ١٠٢/٣، التحرير والتنوير: ١٧/ ١٠٣.

٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١٠٣.

٤) ينظر: البحر المحيط :٤٠٨/٧، والتحرير والتنوير: ١٧/ ١٣. وأبدع الإمام البقاعي في تعقيبه على قولهم هذا، فقال:" والعجب أيضاً أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم لما يخص الله به بعض الناس عن بعض الذكاء والفطنة، وحسن الخلائق والأخلاق، والقوة والصحة، وطول العمر وسعة الرزق – ونحو ذلك من القيافة والعيافة والرجز والكهانة، ويأتون أصحابها لسؤالهم عما عندهم من ذلك من العلم". نظم الدرر: ١٢/ ٣٨٤.

ثم تأتي الحلقة الأخيرة فتعلن عن تخبطهم وإصرارهم على إيجاد تفسير للإعجاز الموجود في القرآن، والذي هم أعلم الناس به؛ فهم أهل هذه اللغة، ولا يمنعهم عن الإيمان به إلا الكبر والعناد. يصرون على إيجاد تفسير يرفع عنهم الحرج، ويصرف الناس عن الاستماع للقرآن ناهيك عن اتباع تعاليمه.

هذه الحلقة الأخيرة تمثلت في عدة مراحل؛ **الأولى**: قول بعضهم لبعض على جهة التوبيخ (أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)، ففيها شبهوا القرآن بالسحر، وأنكروا على بعضهم اتباعه وهم مدركون تماما أنه سحر. **والثانية**: أتت في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، فقد وصلوا إلى قمة التخبط، فأضربوا عن نسبة السحر إلى النبي ﷺ، وقالوا أن كل ما يأتي به إنما هو أضغاث أحلام، ثم أضربوا عن هذا، وقالوا بل افتراه، ثم أضربوا مرة ثالثة، وقالوا بل هو شاعر" وهكذا المبطل لا يثبت على قولٍ بل يبقى متحيرًا، وهذه الأقوال الظاهر أنها صدرت من قائلين متفقين انتقلوا من قول إلى قول أو مختلفين قال كل منهم مقالة"[١]. والخلاصة هنا أن وصفهم للنبي ﷺ أو القرآن بالسحر أو غيرها من الأوصاف لم يكن مبنيا على دلائل تؤكده، وإنما كان مجرد قول يخيفون به الناس من اتباعه.

الموضع السابع: في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٩ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩]، جاءت هذه الآيات في جو هادئ من البيان والتقرير وإقامة الحجة على من لا يؤمن بالله تعالى؛ فبعد أن ذكرهم الله تعالى ببعض نعمه عليهم، مثل: السمع والبصر

١) البحر المحيط :٤٠٩/٧.

والفؤاد والحياة والموت والليل والنهار، عرض قولهم الذي اتبعوا فيه آباءهم الأولين، ثم أقام عليهم الحجة، بأن سألهم عن بعض الأمور التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها، والتي يلزم من الإقرار بها إيمانهم بباريها وإذعانهم لشرعه ورسالة رسوله. ولما أصروا على عنادهم وطغيانهم، أتبع جوابهم استفهام توبيخي استنكاري، وختمها بقوله: (فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ).

وفيه توبيخ في قمة البلاغة، بدأ بـ (أَنَّى) التي هي بمعنى (كيف) و(من أين)، يوضح الإمام ابن عطية دلالة ذلك فيقول:" وفي هذا تقرير سحرهم وهو سؤال عن الهيئة التي سحروا بها، والسحر هنا مستعار لهم وهو تشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور عبر عنهم بذلك" [1]، وبالتالي فالسحر لم يستعمل في معناه الحقيقي، وإنما يعبر عن حالة الاضطراب والتخليط التي وقعوا فيها بسبب بعض المؤثرات الخارجية. وأتى الفعل المضارع (تُسۡحَرُونَ) مبنيا المجهول، ليدل على أنهم حدث لهم ذلك بمؤثر خارجي، وعلى عدم الاهتمام بهذا المؤثر، بينما يصب التركيز على تأثيره، وتوبيخهم على وقوع هذا التأثير.

وفي دلالة (تُسۡحَرُونَ)، قيل أن معناه: من أي وجه تصرفون عن التصديق بآيات الله، ويخيل إليكم الكذب حقا والفاسد صالحا، فتصرفون عن الإقرار بالحق الذي يدعوكم إليه رسولنا محمد ﷺ [2]، وعليه فسيدنا المصطفي ﷺ ليس المقصودا بالسحر في الآية، ويكون المراد بالسحر" ترويج أيمة الكفر عليهم الباطل حتى جعلوهم كالمسحورين" [3].

---

١) المحرر الوجيز:٤/١٥٣، ١٥٤.

٢) ينظر: جامع البيان: ١٧/ ١٠٠، التفسير البسيط: ١٦/ ٤٨.

٣) التحرير والتنوير: ١٨/ ١١٢.

ويظهر من هذا السياق أمرين: الأول: أن النبي ﷺ، لم يكن هو المقصود بالتسبب في سحرهم. الثاني: أن دلالة مادة (س ح ر) فيه دلالة مجازية تدور حول معنى الصرف عن الحق إلى الباطل.

وبإمعان النظر في الدلالة المقصودة من اشتقاقات (س ح ر) في السياقات الدلالية الخاصة بالنبي ﷺ، يلاحظ أن عامتها مبني على معنى الصرف من الحق إلى الباطل، وذلك أن معجزة النبي هي القرآن، وهو في حقيقته كلام، لكنه كلام من نوع خاص، ليس له نظير، ولا أحد يستطيع أن يأتي بشيء مثله، ولم يصاحب ذلك وجود معجزات حسية يكون فيها تخييل للرائي. إلا أن الله تعالى في بعض السياقات يقول إنه حتى لو أتاهم بأشياء حسية يمكن معاينتها ولمسها لما آمنوا ولقالوا إنها سحر.

الموضع الثامن: في قوله تعالى:﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان: ٧-٨]

تكرر هذا الاتهام باللفظ نفسه في سورة الإسراء (وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا)، لكن السياق الخارجي لكل موضع يختلف عن الآخر، وهذا – بالطبع –سيؤثر في الدلالة السياقية للفظ (مَّسۡحُورًا).

اختلف المفسرون في دلالة (مَّسۡحُورًا) على قولين: أن يكون من الخبل بسبب تكرار وقوع السحر عليه مرة بعد مرة، أو أن المراد أنه من البشر لكونه ذا رئة. ورجح السياق في سورة الإسراء الدلالة الأولى، أما في سورة الفرقان فلابد من تحليل عناصر السياق لمعرفة المعنى المراد باللفظ في سياقه.

سورة الفرقان سورة مكية، تدور في إيقاع عذب سلس حول التسرية عن النبي ﷺ وطمأنته، وكأنها تمسح على آلامه ومتاعبه، وتعطيه من الثقة والطمأنينة ما يواجه به مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وجدالهم بالباطل.

والآيات – محل الدراسة – تعرض حلقة من حلقات عنادهم وجدالهم بالباطل، فبعد أن بين لهم الغرض من إنزال القرآن على عبده ورسوله ﷺ وهو أن يكون نذيرا للعالمين، بين أن له – سبحانه – السيطرة المطلقة على السماوات والأرض، وأبطل ما شاع عند النصارى من أن له – سبحانه وتعالى – ولد، فنفى – نفيا قاطعا – أن يكون له ولد أو شريك، ثم بين أنه – تعالى – خلق كل شيء في أحسن صورة بالقدر اللازم بالضبط، ومع ذلك فإن هؤلاء المشركين لم يفقهوا شيئا من ذلك كله، واتخذوا من دونه آلهة ضعيفة لا تخلق، ولا تملك شيئا من أمر نفسها ناهيك عن غيرها. وبدلا من أن يعتبر هؤلاء القوم فيتفكروا في آيات الله ويذعنوا لشريعته، استبدلوا ذلك بأن قالوا عن كل ما أنزله الله تعالى: (إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ)، ثم تطاولوا على شخص النبي ﷺ فقالوا: (مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ)، فهم يتعجبون من كونه بشرا مثلهم، يفعل ما يفعل البشر من تناول الطعام والشراب والمشي في الأسواق، ثم اقترحوا أن يرسل الله إليه مَلَكا ليكون رسولا معه، أو ينزل الله إليه كنزا أو يعطيه جنة يأكل منها. لما قال له مشركو قومه ذلك ليلة اجتماع أشرافهم بظهر الكعبة، نزلت هذه الآيات [1].

تعجب مشركو قريش من اختصاص النبي ﷺ بالرسالة وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب، كما أنه من أقلهم مالا، وليس من سادتهم، ولذلك استهانوا به وسخروا منه، بالإشارة إليه بـ (هذا) ثم وصفه بـ (الرسول)، يقول الإمام البقاعي:" والإشارة على هذا الوجه تفهم

١) الخبر بتمامه في تفسير الطبري جامع البيان: ١٧/ ٤٠٢.

الاستهانة والتصغير؛ ثم أظهروا السخرية بقولهم: {الرسول} أي الذي يزعم أنه انفرد عن بقية البشر في هذا الزمان بهذا الوصف العالي"[١]، وقولهم (لولا)، لم تأت على دلالتها الحقيقة التي هي التحضيض، وخرجت إلى دلالة أخرى، فهي هنا للدلالة على التوبيخ، فالسياق كله يشير إلى رغبتهم في الاستهزاء من النبي، والتقليل من شأنه ولهذا عبر الله عنه بأنهم (الظالمون) لأنفسهم فيما يقولون.

وبهذا تتحدد دلالة (**مَّسْحُورًا**)، بأنه من البشر الذين لهم (سَحَر) أي: رِئة، ويرجح ذلك قولهم السابق (مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ).

الموضع التاسع:في قوله تعالى:﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [سبأ:٤٣]

الموضع العاشر:في قوله تعالى:﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٢-١٦]

الموضع الحادي عشر: في قوله تعالى:﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ١-٥]

---

١) نظم الدرر: ١٣/ ٣٤٣.

الموضع الثاني عشر: في قوله تعالى:﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٢٩-٣١]

الموضع الثالث عشر:في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٧-٨]

الموضع الرابع عشر:في قوله تعالى:﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٦]

الموضع الخامس عشر: في قوله تعالى:﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١-٣]

الموضع السادس عشر: في قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٩-٢٥]

وردت هذه السياقات جميعا في سور كلها مكية، تهتم بأمور العقيدة وتثبيت أركان هذا الدين، بإظهار دلائل وحدانية الله وقدرته على كل شيء، والتأكيد على أن سيدنا محمد ﷺ نبيه ورسوله، وهذا هو المقصد العام للقرآن المكي، الذي يعرض الصراع الذي دار بين الإيمان والكفر، بين النبي المؤمنين معه من جهة وكفار قريش من جهة ثانية.

وفي هذه السياقات، انحصرت مشتقات (س ح ر) في: بناء المصدر، واسم الفاعل. تكرر المصدر في سبعة مواضع، وصفا لما أتى به النبي ﷺ من عند خالقه –عز وجل – وتضافرت عناصر تلك السياقات لإظهار سبب ذلك الاتهام المتكرر، وهو العناد المجرد من أي تفكير أو تعقل. ووصف السِّحر في تلك السياقات بعدة صفات، هي (سِحْرٌ مُّبِينٌ (ثلاث مرات)، سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ، سِحْرٌ يُؤْثَرُ). وُصف السحر بأنه (مبين) أي واضح جَليٌّ في سور (سبأ، الصافات، الأحقاف)، في معرض تكذيبهم للآيات البينات التي تدل على ربوبية الله ونبوة رسوله ﷺ. ووصف بأنه (مُّسْتَمِرٌّ) في سورة القمر بعد عرض إحدى الآيات الكونية الدالة على ربوبية الله تعالى، وهي انشقاق القمر، تلك المعجزة التي رآها أهل مكة جميعا، ومع ذلك لم يؤمنوا، وإنما بالغوا في عناهم، فوصفوا هذه المعجزة بالسحر المستمر. واختلف المفسرون في تحديد دلالة لفظ (مُّسْتَمِرّ)[1]، فذهب بعضهم إلى أن معناها: ذاهب، وقال الآخرون أن معناها: وصف السحر بالقوي الشديد الذي يعلو كل سحر[2]، والسياق يحتمل هذه الدلالات جميعا، وربما يدل عليها مجتمعة، فمعجزة انشقاق القمر، كانت مرة وانتهت ولم تتكرر بعد ذلك، كما أنها تدل بقوة على ربوبية الله تعالى، فقابلها أهل مكة بوصفها بقوة السحر فيها.

١) ينظر: تفصيل ذلك في: التفسير البسيط: ٢١/ ٩٠، ٩١.

٢) ولتفصيل ذلك ، ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ١٧٢.

ثم وصف أخيرا بأنه (سِحْرٌ يُؤْثَرُ) وذلك في سورة المدثر، على لسان الوليد بن المغيرة[١]، لما سئل أن يأتيهم بوصف للنبي ﷺ، يصدون به الناس عنه، فبعد أن فكر مليا قال:" ما هو إلا ساحر. أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل"[٢].

وفي سياق سورة الطور، تحذير شديد اللهجة، حيث يصف الله تعالى لهم جزءا من أهوال يوم القيامة، ومقامهم أمام الله للحساب، ثم يتوجه إليهم بالسؤال الذي أتى على غير جهة الاستفهام، ففيه إنكار وتوبيخ ولوم على ما قالوه في الدنيا (أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)، ففيه بيَّن الله لهم عاقبة إصرارهم على الكفر واتهام النبي بالكذب، لعلهم يعقلون إن كانت لهم قلوب تعقل[٣]. ولكن أنَّى لهؤلاء أن يفيقوا وقد ختم الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة، فهم لا يفقهون ولا يهتدون سبيلا.

---

١) أخرج الحاكم في المستدرك، عن ابن عباس – رضي الله عنه –، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمُّ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لمْ؟ قال: ليُعْطُوكَهُ فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قِبَلَهُ، قال: قد علمت قريشٌ أنِّي من أكثرها مالًا. قال: فقُل فيه قولًا يبلُغُ قومك أنَّك منكرٌ له أو أنَّك كاره له، قال: وماذا أقول (فوالله ما فيكم رجلٌ أعلمَ بالأشعار منِّي، ولا أعلمَ بِرَجَزٍ ولا بقصيدةٍ منِّي ولا بأشعار الجنِّ، والله ما يُشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاهُ مُغْدِقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطِمُ ما تحته) قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أُفكِّر، فلما فكر قال: هذا سحرٌ يُؤثَرُ يَأْثُرُهُ من غيرِه " أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين على أنه صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يُخرِّجاه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدثر، ج ٢ ص ٥٥٠، حديث رقم: ٣٨٧٢.

٢) الكشاف: ٤/ ٦٤٩.

٣) أكد هذا المعنى الإمام البقاعي، ينظر: نظم الدرر: ١٩/ ١١.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمد ﷺ خير خلق الله، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آلة وصحبه أجمعين. وبعد:

فقد تفضل الله تعالى عليَّ وأعانني على الانتهاء من هذا البحث الشائك الشاق، الذي عايشته لمدة طويلة قراءة وتفكيرا وتنظيما ثم صياغة. ولقد كان من حسن الطالع أن وفقني الله لاختيار هذا الموضوع، فلقد – والله – تعلمت واستفدت من دراسته الكثير والكثير، فلله الحمد والمنة.

ومن النتائج التي توصلت إليها ما يلي:

أولا: وردت مشتقات (س ح ر) في سبع وعشرين سورة من القرآن ، وتكررت في ثلاث وستين آية، وانحصرت هذه المشتقات في خمسة عشر مشتقا، هي:(سَحَرْ، أَسْحَار، سَاحِر، مُسَحَّرِين، سَحَرَة، سَحَروا، تَسْحَرَنَا، سَاحِرون، سَاحِرَان، سَحَّار، مَسْحُورا، سِحْرَان، تُسْحَرُون، مَسْحُورون)، وكان أكثرها تكرارا هو المصدر (سِحْر، سبعا وعشرين مرة)، ثم اسم الفاعل (سَاحِر، ثلاث عشرة مرة) ثم جمع التكسير (سَحَرة ثمان مرات).

ثانيا: انحصرت دلالات (س ح ر) في القرآن في أربع دلالات، هي:

– السِّحر المعروف الذي يأخذ بالعين والقلب، وهي الأكثر ورودا في القرآن الكريم.

– وقت السَّحَر، وهو الوقت الذي يكون قبيل الفجر.

– الدلالة على البشرية، وهذه الدلالة مأخوذة من السَّحْر، وهو الرئة.

–إطلاقه مجازا على معنيين، أولهما: (العَالِم)، في قوله تعالى﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾، بجامع إتقان الصنعة والتأثير على الناس في كل.

وثانيهما: الصرف عن الحق إلى الباطل، في قوله تعالى:﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾، وفي أكثر سياقات الآيات المختصة بالنبي ﷺ فبترويج الأكاذيب يتشكك الناس في أمرهم.

ثالثا: ارتبطت دلالة (س ح ر) في كل السياقات بوصف المعجزات أو الأنبياء الذين يجري الله المعجزات على أيديهم بالسحر، وانحصرت في التأثير على أعين الناس وعقولهم فيرون ما يريده الساحر، إلا في سياق آية سورة البقرة في شأن سليمان عليه السلام، فورد فيها التأثير المادي بإيقاع الضرر بالناس بمعونة الشياطين، كالتفريق بين الزوجين.

رابعا: نصَّ القرآن على أنواع متعددة من السِّحر، منها: سحر التخييل القائم على الأفعال الخادعة لتعمية الأبصار، وهو الأكثر شيوعًا في القرآن لارتباطه بمعجزات الأنبياء. ومنها السحر بمعونة الشيطان لإيقاع الضرر، وسحر التفريق بين الزوجين، وهذان ورد ذكرهما في آية البقرة. كما أُشير ضمنًا إلى وجود أنواع أخرى في سياق قصة هاروت وماروت، حيث كانا يعلِّمان الناس سحر التفريق بين الزوجين، وهو أشدُّ أنواع السحر، مما يستلزم تعليمهم ما هو دون ذلك.

خامسا: أن اتهام الكافرين للأنبياء بالسحر كان بسبب معجزاتهم الحسية المشاهدة، أما اتهامهم لخاتم الأنبياء فكان عنادًا ورغبة في تضليل الناس، وذلك أن أعظم معجزات النبي ﷺ هي القرآن الكريم، وما فيه من معان ودلالات وأخبار، وهي ليست من الحسيات.

سادسا: شنَّع القرآن على السِّحر، ونفَّر منه، وصرَّح بكفر من يتعاطاه، مؤكدًا أنه لا نفع يرجى منه، وأن وقوع ضرره أو رفعه لا يكونان إلا بإذن الله.

سابعا: أن خلاصة قضية السحر أنه صراع بين العقل والشيطان؛ فبتحكيم العقل يبتعد الشيطان وينصرف المرء عن السحر، أما إذا غلب الشيطان، لجأ المرء لما يخالف العقل. ولهذا تناول القرآن السحر كثيرًا، داعيًا إلى استخدام العقل في الاستدلال على وجود الله، إذ كانت دعوة الأنبياء تقوم على التفكر والتعقل، وامتحن الله الناس بالسحر لتحقيق ذلك الهدف. أمَّا التوصيات فتمثلت في:

أولا: يجب على الباحثين دراسة مثل هذه الموضوعات الشائكة دراسة سياقية في القرآن والسنة النبوية.

ثانيا: يجب على النخبة المثقفة العارفة بدين الله تنبه وتوعية عامة الناس على خطر هذا الفعل وحكمه، وتكفير معلمه ومتعلمه وممارسة، وتشنيع الاستعانة بمثل هؤلاء في رفع الضرر أو محاولة إيقاعه.

ثالثا: لا بد للبلاد المسلمة من سن قوانين تجرم من يمارس هذا الفعل الشنيع، فهو كفر صراح لأن فيه استعانة بالشيطان، وإضرار بعامة الناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط٢ (١٤١٢هـ – ١٩٩٢م).
٣- الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، لأبي الربيع سليمان الطوفي (ت ٧١٦هـ)، تح: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م).
٤- الأصول في النحو، لأبي بكر محمد ابن السراج، مؤسسة الرسالة، تح: عبد الحسين الفتلي، لبنان- بيروت.
٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر- بيروت – لبنان، (١٤١٥هـ – ١٩٩٥).
٦- الإعجاز البياني في صيغ الأفعال، د/ محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين الإسلامية، ط١، (١٤١٣هـ)
٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
٨- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دار الفكر، بيروت (١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م).
٩- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١ (١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م).
١٠- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ)، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
١١- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (١٩٨٤).
١٢- التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه، د/ كريم زكي حسام الدين.
١٣- التحليل الدلالي للبنية الصرفية في سورة الفتح، د/ حمدي صلاح الدين الهدهد، بحث منشور في مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الخامسة، العدد ٨، ١٤٣٧هـ.
١٤- تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، لأبي الحسن التجيبي الحرالي (ت ٦٣٨هـ)، تح: محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ط١ (١٤١٨هـ – ١٩٩٧م).
١٥- تاريخ المدينة، لأبي زيد عمر بن شبه (ت ٢٦٢هـ)، تح: فهيم محمد شلتوت، (١٣٩٩هـ).
١٦- التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨ هـ)، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، (١٤٣٠هـ).
١٧- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، (٢٠٠١م).
١٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠)، تح: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار الهجر للطباعة، ط١ (١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م).

١٩- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢ (١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م).
٢٠- الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تح: دكتور/ فخرالدين قباوة والأستاذ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٢١- حجة القراءات، لأبي زرعة ابن زنجلة (ت ٤٠٣هـ)، دار الرسالة.
٢٢- حديث القرآن الكريم عن السحر دراسة موضوعية، أ.د/ رزق محمد السواحلي، بحث منشور في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببني سويف، المجلد ٢، العدد ١٢، ٢٠٢٠م.
٢٣- حروف المعاني والصفات، لأبي القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ١٩٨٤م.
٢٤- دراسات في علم الأصوات اللغوية،د/ صلاح الدين محمد قناوي،د/ أحمد طه سلطان،ط٢(١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م).
٢٥- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د/ عبد الفتاح البركاوي، (١٩٩١م).
٢٦- رصف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد بن عبد النور المالقي (ت٧٠٢هـ)، تح: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
٢٧- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي، ضبط: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
٢٨- زهرة التفاسير، لأبي زهرة محمد بن أحمد (ت ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢٩- السبعة في القراءات،لأبي بكر ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، تح:شوقي ضيف، دار المعارف- مصر، ط٢ (١٤٠٠هـ).
٣٠- السحر بين الحقيقة والخيال، د/ أحمد بن ناصر آل حمَد، ط١ (١٤٠٨ هـ) ط٢ (١٤٢٠هـ).
٣١- السحر بين الماضي والحاضر، د/ محمد بن إبراهيم الحمد.
٣٢- السحر حقيقته وحكمه دراسة تحليلية في ضوء الآيتين (١٠٢- ١٠٣) من سورة البقرة، د/ بدر إبراهيم رجاء الذياب، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، العدد الخامس والثلاثون، (٢٠١٨م).
٣٣- السحر دراسة في ظلال القصص القرآني والسيرة النبوية، إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة.
٣٤- السحر والسحرة على ضوء الكتاب والسنة، لأبي خلاد ناصر بن سعيد بن سيف السيف، دار ابن خزيمة.
٣٥- السحر والسحرة من منظار القرآن والسنة،د/ إبراهيم كمال أدهم،دار الندوة الإسلامية،ط١(١٤١١هـ-١٩٩١م).
٣٦- سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
٣٧- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الحديث، القاهرة مصر (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
٣٨- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) لمحمد بن إسحاق المطلبي، تح سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١ (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

٣٩- شرح الأُشموني على ألفية ابن مالك، لأبي الحسن نور الدين الأُشموني (ت ٩٠٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
٤٠- شرح التصريح على التوضيح، لزين الدين خالد الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٤١- شرح المفصل للزمخشري، لأبي البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).
٤٢- شرحان على مراح الأرواح لشمس الدين أحمد المعروف بديكنقوز، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، الطبعة الثالثة (١٩٧٩هـ - ١٩٥٩م).
٤٣- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تح: د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الخامسة (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
٤٤- علم الصوتيات، د/ عبد العزيز علام، د/ عبد الله ربيع، الطبعة الثالثة.
٤٥- علم اللغة العام الأصوات، د/ كمال بشر، ٢٠٠٤.
٤٦- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ)، تح: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٤٧- في الدرس الصوتي، د/ عبد المنعم عبد الله حسن.
٤٨- قصص الأنبياء لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تح: دكتور/ مصطفي عبد الواحد، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الثالثة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م).
٤٩- قصص الأنبياء ومعها سيرة الرسول، للشيخ محمد متولي الشعراوي، الناشر حسن محمود ط١، (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م).
٥٠- الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
٥١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري، ضبطه ورتبه مصطفي حسين أحمد، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي ببيروت. ط٣ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
٥٢- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر الدمشقي (ت ٧٧٥هـ)، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ (١٤١٩ - ١٩٩٨م).
٥٣- المحرر الوجيز، لأبي محمد ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤٢٢هـ).
٥٤- المختصر في أصوات اللغة العربية، د/ محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٥ ، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
٥٥- مختصر مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، لابن عثيمين (ت ١٤٢١هـ)، مكتبة الرشد، الطبعة الأولي (١٤٢٧هـ).

٥٦- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم، تح: مصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
٥٧- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
٥٨- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، لأبي منصور الجواليقي (٥٤٠هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
٥٩- معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين البغوي (ت ٥١٠هـ)، تح: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ.
٦٠- معاني الأبنية في العربية: دكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ط٢ (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)
٦١- معاني القراءات، لأبي منصور الأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب جامعة الملك سعود، ط١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩١م).
٦٢- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١١هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط١ (١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م).
٦٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لأبي محمد جمال الدين بن هشام، تح: د/ مازن المبارك، محمد على حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة ١٩٨٥م.
٦٤- المفتاح في الصرف، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تح دكتور علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١ (١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م).
٦٥- مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠.
٦٦- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١ (١٤١٢هـ).
٦٧- المفصل في صنعة الإعراب، لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تح: د/ علي بو ملحم، مكتبة دار الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م
٦٨- المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، علم الكتب، بيروت.
٦٩- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تح:عبد السلام هارون،دار الفكر،(١٣٩٩هـ—١٩٧٩م).
٧٠- ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
٧١- من أسرار اللغة، د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.
٧٢- من قضايا جمع التكسير، د/ محمد أبو الفتوح شريف، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٤٦، (١٩٨٠م).
٧٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط١ (١٩٦٩ — ١٩٨٤م).

فهرس الموضوعات

المقدمة ١٥٢٧
المدخل ١٥٣٢
المبحث الأول: السياقات الدالة على وقت السحر ١٥٣٧
المبحث الثاني: سياق وصف الكافرين للأنبياء جميعا بالسحر..... ١٥٤٤
المبحث الثالث: سياق وصف النبيَّن صالح وشعيب عليهما السلام بالسحر. ١٥٤٨
المبحث الرابع: سياق وصف النبي موسى عليه السلام بالسحر..... ١٥٥٣
المبحث الخامس: سياق وصف النبي سليمان عليه السلام بالسحر
وقصة هاروت وماروت ١٥٨٣
المبحث السادس: سياق وصف النبي عيسى عليه السلام بالسحر..... ١٥٩٣
المبحث السابع: سياق وصف سيدنا محمد ﷺ بالسحر..... ١٥٩٧
الخاتمة ١٦١٩
فهرس المراجع ١٦٢٢
فهرس الموضوعات..... ١٦٢٦